القصارى في نكبات النصارى

بقلم

شاهد عيان

وثيقة تاريخية نادرة تسجل بشمول وتفصيل ما لحق بالمسيحيين في تركيا وبلاد ما بين النهرين ولاسيما في ماردين، من الظلم والتعدي والخطف والنفي والسبي والذبح والقتل وسائر الفظائع وذلك في سنة ١٨٩٥ وفيما بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٩

الطبعة الاولى سنة ١٩١٩

المقدمة

سبحان من فطر الانسان من التراب . وجاد عليه بكلّ ما عذب وطاب . ووعده ان سار في جادّة البرّ والصواب . بأجزل الاجر وافضل الثواب . ولما ان تعدّى طوره وخالف امره استهدف لنبل المشقات والاوصاب . وتحوّل عزّه وسروره الى الذلّ والاكتئاب ونزل به صارم العقاب . وأليم العذاب

اما بعد فهذا كتاب تضمّن حوادث الحرب المشؤومة الاليمة . وأخبار الفواجع المبكية الجسيمة . وما جريات المذابح الفظيعة . والفواحش والمنكرات المستبشعة الشنيعة . التي جرت في اغلب بلاد ما بين النهرين . وقد افتتحناه بنبذة في سالف تواريخها . المعنا فيها بذكر سابق احاديثها . ودعوناه « القصارى في نكبات النصارى » تلويحاً بما جعل المسيحيين حيارى . وشده عقول المتبصرين . وخلّف سوء الذكرى للقتلة الجائرين . الذين ذبحوا قاتلهم الله خضراننا . واعملوا حسام الحيف في كبارنا وصغارنا : فاكتحلنا بمدهم السهاد

وافترشنا الرماد والقتاد . وورثنا الكمد وحرقة الفؤاد . وبتنا ننذب زمناً خؤوناً لم يزدد فيه الخير الا بُعداً وادباراً . والشرّ الا قرباً واقبالاً . ومصداقاً لما نقول ندعوك ايها العزيز لتضرب بطرفك اينما شئت فما ترى الا فقيراً كابد العري والجوع . وغنياً تجبّر فبدّل نعمة الله الكريم بالكفر والجحود . ومظلوماً فقد أمواله وحُرم أملاكه وخسر أرزاقه . وظالماً غالى في الغدر وتقدّم بالأذى والمكر ليزيد ثروته ويشبع أطماعه

على اننا رأينا لقوم في هذا المؤلف مسلاةً من الهموم والاكدار ولغيرهم مَصحاةً من سكرة الغرور والاستكبار . كي يتذكر هولاء ما صار فيصفرون ويخزون . ويفتكر اولئك في ما حاق بهم فيتباهون ويتعزّون . وما اصدق من قال :

لكلِّ شيءٍ اذا ما تمّ نقصان   فلا يغرّ بطيب العيش انسانُ

فالخطوب اذا توالت تولّت . والكروب اذا شملت عزّت وسلّت . وقد صحّ فينا قول القائل :

ليس البليـة في أيامنا عجباً   بل السلامة فيها أعجب العجبِ

فادّرع صبراً ايها الاخ الحبيب . وان نبا عنه قلبك الجريح الكئيب . وازكن اني اخوك في النائبات . حليفك في النكبات . نعقت في دياري نظيرك بومة الخراب . وانباجت علي مثلك بوائج الحيف من كلّ باب . والتفّ عليّ الغدر والدهاء . واحتفّ بي الضرر والشقاء . فخسرت الاقارب والاصحاب . وحرمت الأهل والأحباب . حتى انك اذا استخبرتني عما دهمني ودهاني . ما اجبتك الا بدمع عيني وأشجاني . لاني شاهدتُ آبائي واخواني ألقوا

في السجون المطبقة ساكتين . وضُربوا وصُفعوا ولطموا وجُلدوا صامتين . وسيقوا سَوق الخراف للذبح ذليلين طائعين . وقضوا في قمم الجبال وبطون المغاور صاغرين خاضعين . وزجّوا في الآبار والأنهار عطاشاً جائعين . واستباح وحوش صقر المحرّمات والمحظورات من هتك نسوة حازمات مخدّرات . وافتراع عذارى وفتيات عفيفات طاهرات . ولم يستوف ابليس الخناس من ذلك مآربه وافراحه . ولم يخفض للانين والزفرات جناحه . بل جعل النكال والبغي والطمع ديدنه مساءه وصباحه . حتى غدا لا جزاه الله خيراً كالجوارح الكاسرة . والوحوش الضائرة . والكلاب العاقرة . لم تسلّم عليه الشفقة والرأفة . ولم يسمع بخبر التؤدة والرحمة . فلم يصعد والحالة هذه باليد شيء الا اللياذ بجميل الاصطبار . والاستسلام لحكم الله العدل القهار

هذا ولما استفحلت مفاسد أعداء الانسانية . وعظمت منهم الأذيّة والرزيّة . حلبت العيون ماءها دماً . وقطرت القلوب دماءها عَندماً . فقلتُ رحماكِ يامقلتي أسعديني وأسعفيني لأبكي ما حييتُ ولندب أحباراً اجلاء نبلاء . وكهنة غُيراً بُسلاء . وشمامسة نزهاء فضلاء . ووجهاء كرماء شرفاء . ورجالاً اتقياء . وشباناً نجباء . وفتياناً ودعاء . ورضعاناً أبرياء . خطفهم اعداء مُرداء فُطروا على الشحناء والبغضاء . وخلّونا نتململ على احرّ من جمر الغضاء . أجل لأبكين ما وسقت عيني الماء . امهات كريمات . وسيدات حكيمات . وعذارى محتشمات . وفتيات منيعات . ومخدرات عفيفات . ومحصنات طاهرات شريفات . انقضّ عليهن بزاة الجحيم

الاجلاف . وحاولوا سلبهن حلل الطهر والعفاف . من دون شفقة ولا انصاف . فحبط والحمد لله مسعاهم . وخاب خيث أملهم ومُتمنّاهم لانهن استعذبن النكال والعذاب والموت الاحمر حبًّا لمن ضحّى بحياته لاجلهنّ . وذاق الوان العذاب والالم في سبيلهن

تلك حقيقة الحال ستراها في تصفّحك هذا الكتاب المؤثر الذي جعلناه خمسة أجزاء بحثنا في الاول عن الحوادث الغابرة من ص ١ ـ ٦٦ واوردنا في الثاني نكبات الحرب العامّة متياومة منذ مفتتحها حتى سلخ ايار ١٩١٥ من ص ٦٧ ـ ١٤٧ وكتبنا في الثالث اخبار الحبوس والمذابح والسبي وسائر الفظائع التي جرت بماردين من حزيران ١٩١٥ الى تشرين من ص ١٤٨ ـ ٣٣١ واثبتنا في الرابع نتفاً من اخبار مذابح بلاد الجزيرة كالرها ودياربكر وراس العين ودير الزور وطورعبدين وسعرت الخ من ص ٣٣٢ ـ ٤٤٤ واضفنا الى ذلك جزءا خامسا ضمّناهُ توابع المذابح ولواحق النكبات وخاتمتها كبيع متروكات النصارى ونبش الدفائن واستخراج الخزائن . وقدوم المسلمين المهاجرين الى ماردين الخ ختمناه بما اصاب السيد جبرائيل مطران السريان من العذابات وقتما نفاه الاعداء وحبسوه وهي خاتمة النكبات من ص ٤٤٥ ـ ٤٩٩

واعلم ايها العزيز ان الذي لم نشاهده بامّ عيننا لقيناه عن شهود عيان كأن العناية الصمدانية شاءت افلاتهم من مخالب الموت ليطلعونا عمّا جرى لهم ولمن استصحبهم كي ندرج حوادثهم وننشرها موعظة للظالمين وتعزية للمنكوبين . وينبغي ان يتاكد لديك ان الاخبار الصادقة في ذلك كثيرة جدًّا جدًّا تكاد تملأ خافقي السمع

والبصر . وتشغل حيز الفكر والنظر . فاقتضبنا المهمّ وأوجزناه قدر ما ساعدتنا الفكرة القاصرة وظروف الاحوال . ولو شئنا من هذه البضاعة لوزنًا وكلنا شيئًا كثيرًا اقتضى له مجلدًا آخر ضخماً . ولكنا اكتفينا اليوم بما سردناه تبصرةً لغير المؤمنين . وهداية للشاردين الغافلين . حتى اذا شاهدوا الفضيلة بأبهى نقائها . والعفة بانصع بياضها وسنائها . والديانة المسيحية بأرسخ بنائها وأوطد دعائمها وأثبت قواعدها . هاموا بحبها وكلفوا بها . وبذلوا كل نفيس في سبيل احتضانها واعتناقها بل في سبيل نشرها واحياء معالمها

وفي الختام نسال المولى الكريم ان يجعل عملنا راجعاً لمجده
العظيم وانتصار الكنيسة الكاثليكية امّ جميع
الكنائس وهداية الضالين عنها الى الصراط المستقيم
انه تعالى على كلّ شيء قدير

الجزء الاول

حوادث ما بين النهرين الغابرة

الفصل الاول

ماردين

ماردين بلدة شهيرة عامرة في بلاد ما بين النهرين ،شيدة فوق جبل باذخ تعلوه قلعة حريزة حصينة منصوبة على اضيق المسالك سمّاها الكتبة سيدة القلاع ومركز الحصار والدفاع . لم يكُ في بلاد الجزيرة قلعة أمنع واحكم منها . حتى ان الملوك والولاة ملّوا حصارها وتعذَّر عليهم نوالها . وهي تطلّ على دارا ونصيبين وسنجار ودنيسر وكفرتوث والخابور وراس العين وما جاورها من البلاد القديمة والقرى الشهيرة . ويكتنفها غيرها من القلاع المنيعة والحصون الرفيعة مما جعل اسم تلك الحصون ان يتغلب على المدينة فدعيت ܡܪܕܐ بالارامية

اعني الحصون . ثم عربها العرب فقالوا هذه ماردون ورأيت ماردين اشارة الى كثرة معاقلها ومناعة حصونها

وابتنى الملوك داخل القلعة قصورا باذخة ودورًا فسيحة وحفروا بها آبارًا جرورة وزرعوا في ارضها اشجارًا متنوعة كثيرة ليتيسّر لهم الدفاع والثبات عند هجوم العدو . فكانت والحالة هذه ماردين وبقاعها كدار حرب متصلة يتنافس ملوك الارض وأقطابها في الاستيلاء عليها

قال صفي الدين الحلي

كم ماردين لماردين تواثبوا ومن المحال طلاب ما لا يُلحق . .
يا من يقايس ماردين بجلّقٍ بَعُدَ القياس وأين منها جلّق

والمدينة في لحف القلعة الى جنوبها تحاكي مرقاة شاهقة فسيحة . دورها كالدرج كل دار فوق أخرى . مبنية بالحجر الابيض او الاصفر الصُلب . موصوفة بجودة المناخ وعذوبة الماء . في شماليها البساتين النضرة والحدائق الغنّاء والرياض الزاهية والكروم المخصبة الحافلة بضروب الثمار الجنية والبقول اليانعة الطيبة والغلال الوافرة

واشهر حاصلاتها السمن والصوف والمرعزى والاجاص واللوز والكرز والمحلب والعفص والبطم

وسكّانها مسلمون ونصارى وكان مجموع النصارى قبل الحرب الشعواء عشرين الفًا من ارمن وسريان وكلدان وبرتستان

الفصل الثاني

النصرانية في ما بين النهرين

ذهب غير واحد من أيمّة المؤرخين البيعيين الى ان النصرانية ذاعت في بلاد ما بين النهرين منذ اواخر القرن الثاني للتجسد بحيث ساغ لبرديصان العلّامة السرياني الرهاوي † ٢٢٢ ان يدوّن في كتاب شرائع البلاد ما شرحه "بما قولنا في طائفتنا النصرانية الحديثة التي أنشأها السيد المسيح في كل قطر ومصر . فقد انتشرت في بلاد الفرثيين وفارس ومادي والرها الخ [1] وايد كلامه هذا ترتليان الشهير بقوله " قد آمن بالمسيح جميع الامم من فرثيين وماديين وعيلاميين وسكّان ما بين النهرين " . وذكر ديونوسيوس الاسكندري " ان في ما بين النهرين كنائس مسيحية شُيدت قبل عصره "

وكانت ماردين فيما نرى في مقدمة المتنصرين . ذلك تؤيده كنائسها وأديارها القديمة ككنيستي الارمن والكلدان وديري السريان وكنيسة الشهيدة شموني . ومما تتناقله الالسنة ان المعصرة التي تحت باب القلعة الجنوبي كانت في سالف الزمان كنيسة الروم

ولا يخفى ان جامع الشهيد حيث ابتنيت المنارة الحديثة اثناء الحرب العامة كان كنيسة للنصارى السريان كما حقق ذلك جماعة من مورّخي السريان كميخائيل الكبير والرهاوي وابن العبري

لكنا لسوء الحظ لم نعثر على شيء من احوال النصارى الاولين

(١) برديصان، طبع الاب نو ص ٢٩ باريس. وانظر اعمال الرسل ٢ : ٩

ولاسيا في القرون الثلاثة الاولى للتجسد . ذلك لكثرة الحروب والنكبات التي التت بهم ففنيت عنا جليل آثارهم وضيّعت حقيقة اخبارهم

الفصل الثالث

حوادث ما بين النهرين السياسية

ورد في اخبار تغلثفلسر الاول ملك آشور ١١١٥ — ١١١٠ قبل المسيح انه في السنة الاولى لتتويجه ملكاً اقبل في جيش جرار الى سواحل الفرات ومر بسنجار ونصيبين وماردين وآمد وشن الغارة على الماشكيين بكماجين وقهرهم وملأ الاودية والجبال من جثثهم وكلل الاسوار بجماجمهم

غير انه عام ٢٥٠ ق م تغلب الارشاقيون او الاشكانيون على العراق والجزيرة وسوريا وجعلوا المدائن عاصمتهم وهم الذين حصّنوا قلعة ماردين وحصنوها واقاموا فيها جيشاً كثيفاً ليردّ عنهم غارات الروم وغزواتهم . وكانت مملكتهم مؤلفة من ممالك شتى صغيرة عرف العرب ملوكها بملوك الطوائف ونصبوا لكل منها حاكماً يراجعهم . واشهر تلك الممالك الرها وتدمر وحدياب والحضر بنواحي تكريت وميشان وهي البصرة وباجرماي وسنجار

وفي ٢٨ نيسان سنة ٢٢٦ م قويت شوكة ملوك الفرس فانقضّ اردشير بن بابك في جيوش جرارة على سهول ما بين النهرين وارزون وبازبدى وبابل وظفر بارطبان آخر الملوك الفرثيين ونصب كرسيه في

المدائن . ولما ملك نرسى على الفرس † ٣٠٢ حمل على الارمن وغلبهم وعقد الصلح مع ديوقاطيانوس ملك الروم فقررا ان تكون نصيبين الحدود الفاصلة المملكتين . فبناها الاورخون مدينة الحدود غير ان شابور الثاني نقض العهود فدوّخ نصيبين وخلفه قباد فحصر آمد سنة ٤٨٨ وسباها ولما ملك كسرى انوشروان غزا بلاد الروم وملكها حتى حماه ثم ارسل يسطنيانس طلائعه الى دارا فخرج عنها كسرى وهادن الروم

ولما قُتل موريقي لبس كسرى الحداد حزناً عليه واحوجه الامر الى الخلاف مع الروم . فاوفد شهربراز قائده الى دارا فحصرها لستة اشهر ودوّخها واحتوى على كتب شتى . وملك طور عبدين وحصن كيفا . فلما سمع ذلك الروم الساكنون في قلعة ماردين اخذهم الرعب فخلوا القلعة وانهزموا الى بلاد الروم الغربية فاجتمع الرهبان وصاروا الى القلعة واوفدوا الى باسيل مطران السريان بكفرتوث يستأذنونه في مقاتلة الفرس . غير ان الفرس كبسوهم وفتكوا بهم واستولوا على القلعة سنة ٦٠٧ م

الفصل الرابع

العرب وما بين النهرين (٢)

كانت الامم القديمة تتزاحم في تلك بلاد ما بين النهرين لكثرة

(١) تاريخ ابن العبري المدني السرياني ص ٩٢ و٩٣ وتاريخ الرهاوي السرياني طبع غبطة العلامة السيد اغناطيوس رحماني بطريرك السريان بدير الشرفة ٨١ : ١٣٣

(٢) راجع مجلة المشرق ١٥ : ١٦٥

خصوبتها وسعة غلاتها . وأزهرت فيها مدن عديدة وحواضر عمصرة لم يبق من اكثرها اليوم سوى اخربة مهيبة او مدن ثانوية تشير الى عظم مقامها في القرون الغابرة . واخص تلك المدن نصيبين ودارا وراس العين وماردين ودنيسر وآمد والرها وميافرقين وكفرتوث وتل موزل وحصن كيفا وقرقيسيا والرقة ويطلق على مجموعها اسم الجزيرة . فهذه البلاد المتدفقة فيها الخيرات والغلات أحبتها قبائل العرب سواء كانوا حضرا او مدرا واستوطنوها من سالف الاجيال ومما يدلّ على انتشار القبائل العربية فيها أعلامها المشيرة الى قاطنيها كديار ربيعة وديار مضر وديار بكر وجزيرة ابن عمر وغيرها

اما ديار ربيعة فكانت بين الموصل وراس العين وماردين ودنيسر والخابور وما تتضمن من البلاد والقرى . واسم ربيعة لهذه البلاد قديم كانت العرب تحل في بواديه قبل الاسلام . ويتصل نسب ربيعة بن نزار باسمعيل بن ابرهيم عليه السلام . وتفرع من ربيعة عقيل فتفردت بأرياف الخابور واختصت جشم بكفرتوث وسكن النمر براس العين . وكان مقام ربيعة خاصة بجبال الجودي وخلفهم الاكراد وخلف الاكراد الارمن

اما ديار بكر فهي بلاد واسعة بين ديار ربيعة وديار مضر وتنسب الى بكر بن وائل . . بن ربيعة . وحدّها ما غرّب من دجلة الى بلاد الجبل المطلّ على نصيبين . ومنها حصن كيفا وآمد وميافرقين وسعرت ويدخل فيها جبل الطور البرّي وهو لبني شيبان بن بكر بن وائل . اما اليوم فيراد بديار بكر مدينة آمد وحدها

اما ديار مضر فهي في السهول القريبة من شرقي الفرات كحرّان

والرقة وشميشاط وسروج والرها والرافقة . وكان يسكنها بنو تيم وبنو سليم وأخلاط مضر. ومضر هو اخو ربيعة بن نزار . . بن اسمعيل

اما جزيرة ابن عمر فنسوبة الى اوس وكامل ابني عمر بن اوس التغلبي من بني ربيعة . وروى ابن البعري في تاريخه المدني السرياني ص ٤٩٣ ان جزيرة ابن عمر ابتنتها قبيلة من العرب تدعى قبيلة عمر وانها ليست من أبنية اليونان

وكانت النصرانية قد اصابت الحظ الافوز في هذه البلاد جمعاء كما تشير اليه الآثار التاريخية والكتابية والبنائية ولاسيما الاديار والكنائس

الفصل الخامس

المسلمون وما بين النهرين

ولما ولي أمر الخلافة عمر بن الخطاب ٦٣٥ — ٦٤٥ اوفد الى ابي عبيدة ان اعقد عقداً لعياض بن غنم وجهز معه الجيوش الى ديار ربيعة وديار بكر . فعقد له عقداً على ثمانية آلاف مقاتل فسار عياض يريد الجزيرة ففتح بالس والرقة وراس العين وجلين وكفرتوث ودارا وماردين وتل موزل وغيرها . ثم ارسل الوليد بن عقبة فجمع بني تغلب النصارى وارادهم على الاسلام فأسلموا . واطبق النعمان بن المنذر على شهرياض صاحب راس العين من قبل الروم وفاجأه بطعنة فألقاه صريعاً . ثم حمل المسلمون سنة ٦٤٢ على قرقيسيا وملكوها وبنوا كنيستها جامعاً وولوا عليها شرحبيل بن كعب . واستولى عبدالله بن غسان

على ماكسين والشمسانية وعربان والمجدل بالخابور

اما ارسوس بن جارس صاحب ماردين فانهزم الى حران فاقبل المسلمون الى ولايته واستحوذوا على قامتها وبذلوا السيوف في النصارى فقتلوهم عن آخرهم . وملكوا راس العين وبنوا كنيستها جامعاً . ودوخوا جبل السناسنة وعزلوا ملكه سوسى بن سلنطور الارمني . واستعملوا على كفرتوث يرغون وابتنوا كنيستها جامعاً . وفعلوا كذلك في دارا ونصيبين وقلعة المرأة وآمد وميافارقين . فأمست بلاد الجزيرة برمتها في حوزة المسلمين وتبعهم في المذهب نصارى بلاد ربيعة وديار بكر وديار مضر . وفتكوا بيزدجرد آخر ملوك الفرس وحزّوا هامته وارسلوها الى سعيد بن وقص واوفدوا تاجه الى عثمان أبيه فوضعه في الجامع بالكعبة [المورخ الرهاوي السرياني ١٣٣ : ١٧٥]

ولما قويت شوكة المسلمين في بلاد ما بين النهرين هجر العرب النصارى ايمانهم وتبعوا الدين الاسلامي طمعاً في بقاء الملك تحت حوزتهم . فسمى المسلمون محمد بن مروان التغلبي اميرا على ما بين النهرين ٦٩٣ — ٧٠٩ وهو الذي اوفد الى الموعد رئيس العرب التغلبيين النصارى يريده على الاسلام . غير ان الموعد لم يذعن لكلامه فاحتدم محمد غضباً وألقاه في بئر مملوة حمأة ثم امر باخراجه والتوسيع عليه لعله يدخل في دين الاسلام . ولكنه اي الموعد ابى الا الثبات على ايمان اجداده فارسل محمد وقتله . وعام ٦٩٦ سار الحجاج الى نصيبين وقتل وسلب واخرب وصلب مردنشا ونجله وشمعون برنونا

امراء البلد النصارى وجمع روساء الارمن في الكنيسة واحرقهم[1]

وجاء عن الوليد أنه استدعى اليه سمعال رئيس العرب التغلبيين المسيحيين وقال له « عارٌ عليك السجود للصليب واضطرار العرب اصحابك الى السجود له نظيرك . على اني أنصح لك ان تذعن لامري وتتبع الدين الاسلامي»

قال له سمعال « اني لا انكر اني إمام التغلبيين قاطبة . غير اني اخاف كل الخوف ان أردت أصحابي على الاسلام وعلى انكار دين عيسى فاني اغدو سبباً لهلاكهم»

فما كان من الوليد الا ان اصدر الامر الى اصحابه فاوثقوا سمعال وجروه في الشوارع ثم ارسل يتهدده ويقول له « ان لبثت مصرّاً اطعمناك لحم جسدك » لكن سمعال لم يكترث للوعد والوعيد . فاوفد الوليد وقطع فخذه وشواها والقاها في فيه فالتقمها سمعال مصطبرا فانذهل الوليد وسرحه على تلك الصورة الى بيته وظل حيّاً دون فخذ[2]

وعام ٨٣٣ هاج هائج المسلمين في دارا ونصيبين وآمد وماردين وراس العين وفتكوا بكثيرين من وجهاء المسيحيين وتجارهم واحرقوا دساكرهم واخربوا قراهم وبقروا العذارى وقتلوا الفتيان[3]

وآخر من عُرف من الامراء الروانيين محمد خليفة غانم . تولى ديار ربيعة والخابور وما والاها وولي بعده ابو جود التركي ٨٦٢—

(١) ابن العبري تاريخه السرياني ص ١١٢ والرهاوي ١٤٨ : ١٨٩

(٢) ابن العبري ص ١١٥ السرياني (٣) الرهاوي ٢١٧ : ٢٤١

٨٦٨ فوجه الجنود الى ابي العمود التغلبي فقتلوه في كفرتوث

ثم تولى أمر الجزيرة حمدان بن حمدون التغلبي الربعي جد الامراء الحمدانيين ٨٦٨ — ٩٨٢ وجعل هو وخلفاؤه مدينة برقعيد قصبة ملكهم . وشخص المعتضد خليفة بغداد عام ٨٩٤ الى ماردين يريد قلعتها فانهزم حمدان بن حمدون وخلف بها ابنه فنازلها المعتضد وقاتل من فيها يومه ذلك . ولما كان من الغد ركب المعتضد وصعد الى باب القلعة وصاح بابن حمدان فاجابه فقال افتح الباب ففتحه فقعد المعتضد في الباب وأمر بنقل ما في القلعة وهدمها . وكان عضد الدولة آخر من تولى أمر ماردين من بني حمدان وحلت وفاته سنة ٩٨٢ وبموته انتهت مملكة بني حمدان التغلبي

وسنة ٩٨٣ قوي امر الاكراد في بلاد الجزيرة . وملك بعد باذ بن دوستك ابو علي بن مروان سنة ٩٩٠ وخلفه اخوه ممهد الدولة وملك بعده ابو نصر بن مروان ١٠١١ — ١٠٦١ وكان مقصداً للعلماء من جميع الافاق واستتبت الراحة في ايامه وسادت الطمأنينة في جميع بلاده . وخلفه نصر ابنه ١٠٦١ — ١٠٨٠ وولي بعده منصور ابنه ١٠٨٠ — ١٠٩٥ وعلى يده انقرض امر بني مروان

الفصل السادس

الدولة الارتقية ١٠٩٥ — ١٤٢١

تفرد بنو ارتق بمملكة ماردين واحتصنوا بمعاقلها ولعبوا دوراً مهماً مدة ثلاثة قرون . وعرف منهم اثنان وعشرون ملكاً تولوا

امر ماردين وغيرها خلفاً عن سلف . ولهم اليد الطولى والرتبة الاولى في بناء المساجد والمدارس وإحياء المعارف وتجديد الدوارس وكانوا اصحاب شوكة ومراس يضيفون العلماء ويعززون ارباب المحابر ويجلون اصحاب المنابر .

واول من ملك منهم ارتق بن اكسب ١٠٧٦ — ١٠٨٥ وخلفه امين الدين ايلغازي المعروف بالملك الجبار ١٠٨٥ — ١٠٩٢ وولي بعده ايلغازي بن ارتق سنة ١٠٩٢ ثم ياقوتي ثم علي ثم ايلغازي ١١٠٤ — ١٠٢٢ وهو الذي ضم حلب الى ماردين سنة ١١١٨ — ١١٢٧ وتقلد زمام الملك بعده حسام الدين تمرتاش ١١٢٢ — ١١٥٣ وشاد في ماردين مدرسة سميت المدرسة الحسامية ابتنى الى جانبها مسجداً مفخماً . ووليه نجم الدين ألبي ١١٥٣ — ١١٧٦ وفي عهده استحل المسلمون كنيسة الاربعين شهيداً ودار الطرنة السريانية وضموها الى الجامع سنة ١١٧٠ واستولوا كذلك على كنيسة مار توما كما اورد ابن العبري والمؤرخ الرهاوي في تاريخيهما السريانيين .

وخلف نجم الدين قطب الدين ١١٧٦ — ١١٨٤ ثم حسام الدين يولق ارسلان ١١٨٤ — ١٢٠٤ ثم قطب الدين فناصر الدين احمد ١٢٠٤ — ١٢٣٤ وشاد المدرسة الشهيدية . وجامعاً ومدرسة ومنارة في دنيسر ومدرسة في حرزم

وقام بعده السعيد ابنه ١٢٣٤ — ١٢٥٩ ثم المظفر ابنه ١٢٥٩ — ١٢٨٥ فالملك المنصور ١٢٨٥ — ١٣١١ فالعادل ثمانية عشر يوماً . فالملك الصالح ١٣١١ — ١٣٦٣ فالمنصور الثاني ١٣٦٣ — ١٣٦٤ فمحمود ابنه ١٣٦٤ — ١٣٦٦ فداود بن صالح ١٣٦٦ — ١٣٧٦ فالملك الطاهر

عيسى ١٣٧٦ ـ ١٤٠٦ وفي عهد مملكته اي عام ١٣٩٣ شخص تيمورلنك الى ماردين وخيّم في دنيسر يتربص الفرصة للاستيلاء على الولاية . ثم شخص الى البلد وأخربه ولبث حتى سنة ١٤٠٠ يحاول اخذ القلعة فامتنعت عليه فهدّ اسوار البلد وقوّض الجوامع والحمامات والدور وانقلب راجعاً

وخلف الملك عيسى الملك الصالح ١٤٠٦ ـ ١٤١٠ ثم اولاده الثلاثة موسى ومحمود وعبد الحي . وفي تلك الغضون قوي امر قره يوسف التركماني فحصر القلعة سنتين واستولى على سواد البلد وملك آمد وميافرقين وحصن كيفا والصور وراس العين

الفصل السابع

الامارة القرقوينلية ١٤١٠ ـ ١٤٦٨

والامارة الاغقوينلية ١٤٦٨ ـ ١٥١٤

وفي تلك الاثناء اشتدت صولة التركمان وتولى امارتهم قره يوسف بن محمد . فظاهر على صاحب بغداد والبصرة وخطب له فيهما وفي الكوفة وكردستان . وسنة ١٤١٠ شخص الى ماردين واخضعها واستعمل العمال عليها وعلى آمد وقفل راجعاً الى توريز . وولي بعده ابنه اسكندر ١٤٣٥ فقتله قباد عبد اخيه عام ١٤٣٧ وملك حسن الطويل دياربكر وماردين فسار اليه جهانشاه في خمسين الفاً فانهزم حسن الى خربوط فماردين فجد جهانشاه في طلبه فانقلب حسن الطويل الى ماردين وقاتل جهانشاه وفتك بـه وبجنوده سنة ١٤٦٨ وملك

مكانه . ثم سار حسن الى العراق وولى اخاه القاسم شؤون ماردين وديار بكر واستنهضه ليعمّر ما تهدم ويجدد ما تقوض . فنقل الامير قاسم الى ماردين نيفاً وثمانين الف عائلة من نواحي توريز واذربيجان ورمّم المساجد والحمامات والاسواق والدور وشاد مدرسة غربي البلد عرفت بالقاسمية حتى يومنا ورتب لها الاوقاف وابتنى جامع التكيه وشادت زوجته الى جانبه مدرسة الخاتونية . واقام ابرهيم ابن اخته والياً على ماردين فدبرها سبعاً وثلاثين سنة . وعام ١٥٠٧ تولى امور ماردين اوستاجلو المعروف بمحمد كِرْونه فظاهر عليه السلطان سليم خان الاول ابن السلطان بايزيد ١٥١٣ ـ ١٥٢٠ فامست ماردين منذ ذاك خاضعة للسلاطين العثمانيين ينصبون لها الحكام واحداً فواحداً

الفصل الثامن

الدولة العثمانية

وسنة ١٦٢١ اوفد السلطان مصطفى الى ماردين عيتابلي محمد آغا ليتولى شؤونها من قبله . وخلفه سبعة حكّام لم تطل مدتهم الا تسعة اعوام . وسنة ١٦٣٠ سمي يعقوب حاكماً لماردين فانشأ السراي الجديد شرقي البلد . وشدد الحكام بعده على النصارى وانزلوا بهم النكبات والعقوبات فاضطر نصارى الصور والاحمدي واستل ورشمل وقباله وعشائر المحلية والراشدية والخاشنية ان يهجروا النصرانية ويدينوا بالاسلامية

ومذ عام ١٦٤٧ جعل حكام ماردين يراجعون وزراء بغداد

ليستعينوا بوافر غلاتها على مقاتلة الذين يناصبون الدولة ويعادونها كاهالي سنجار ومن نحا نحوهم . وظلت ماردين خاضعت لوزراء بغداد حتى سنة ١٧٢٧

وعام ١٧٣٥ اقام السلطان محمود الاول علي الرضا باشا الارديني والياً للبلد وانعم عليه وعلى اولاده من بعده ان يتولوا شوونها . وحدثت فتن شديدة سنة ١٧٧٧ في بلدة ماردين فثار الاهالي على يوسف الحاكم وسمّوه وسمّوا عبد القادر خلينته سنة ١٧٧٩ وعثمان المكتوبجي سنة ١٧٨٥

وسنة ١٧٩١ شخص الى ماردين سليمان باشا وزير بغداد وامر بصلب حسين السراكجي وحسين الفرسي في سوق الطحين ثم قفل راجعاً الى بغداد . وعام ١٨٠٧ تغلب الداشية على المدينة وضعضعوا اسوارها ونهبوا الاسواق وابتزوا الاموال وفتحوا تحت الليل الفاً وخمسمائة بيت واحتووا على ما فيها وواصلوا اطلاق البنادق في المدينة ثلاثة ايام كاملة . وكان ذلك في رمضان سنة ١٨٠٨ فتأتى من ذلك ان جملة من الحوامل لقين حتفهن لمزيد الرعب والهلع

ولما تولى حسين العزب امور ماردين فتك بامير الفرس وامير العمريان وامير الكيكية وامير الملية وعبد الفتاح . وقتل اربعة وعشرين من الداشية والنابلية وبعث برؤوسهم الى وزير بغداد فأثنى الوزير على شهامته وايده في وظيفته وخلع عليه الخلع الثمينة

وسنة ١٨١٥ نصب يونس الاربلي حاكماً لماردين فحدثت في ايامه مشاغب وفتن بين السركجية والداشية والعمريان اذ كانوا يطوفون الاسواق يضربون ويقتلون كل نصراني . ولما تولى الحكم احمد آغا

السلاحدار القى القبض على بطريرك السريان اليعاقبة في عاشر رمضان ١٨١٧ وزجه في سجن القلعة فاخذت الحمية الخواجا الياس شادي كبير الارمن المشهور اذ ذاك بنفوذه فحامى عنه وافتداه بثلاثة وثلاثين كيساً اضاف اليها سبعة اكياس . فاضطر السريان ان يبيعوا اوقاف بيعة الاربعين ودير مار ميخائيل وبيعة شموني ليوفوا المبلغ والزموا السريان الكاثليك ان يغرموا شيئاً من ذلك فأدّوه وانقذوا البطريرك .

وفي نيسان ١٨٢١ استدعى عبد القادر حاكم ماردين الخواجا الياس شادي الارمني واستقرضه خمسة عشر كيساً اضاف اليها فيما بعد اربعين كيساً اخرى ففرض الخواجا الياس على المسلمين ثلاثين كيساً وفرض الباقي على المسيحيين . غير ان المسلمين ابوا الدفع فاضطرّ الحاكم نصارى البلد ان يدفعوا المبلغ اجمع ولم يقرّ قراره حتى استوفاه منهم عن آخره

وعام ١٨٣٠ وافى الى ماردين علي باشا وزير بغداد فأدى له الطاعة الحاج احمد الحاكم ودفع اليه مفاتيح القلعة . وخلفه سنة ١٨٣١ عثمان بن ابرهيم باشا الامدي فألقى القبض على الخواجا الياس شادي وسجنه في القلعة وابتز امواله وامتعته . واوفد في ١٥ آب الى حارس القلعة في قتله غيلة ففتك به ليلاً والقى جثته الى جهة البلد فاستحوذ الرعب على النصارى . غير ان الحاكم لشديد خشونته وفظاظته اصدر الامر الى الجنود فاوثقوا جثة القتيل البري وجرّوها في ازقة البلد عند الظهيرة ومضوا بها الى المسلخ واستحوذوا على امتعته واثاثه وباعوها في السوق العامة

وسنة ١٨٣٥ نُصب اسعد محمد المعروف بكوسه حاكماً لماردين وفي ايامه جرى تحرير الاهالي فكان عدد المسلمين ٢٩٤٣ نسمة والنصارى ٣١٩٠ واليهود خمسين نسمة

وظلت ماردين خاضعة لوزراء بغداد حتى جمادى الاخرى ١٨٣٩ فأنيطت امورها بمحمد باشا البيرقدار والي الوصل فشخص اليها سنة ١٨٤١ واستمر فيها سنة كاملة وعشرين يوماً ثم اقرّ عليها محمد آغا وعاد الى الموصل . ومذ سنة ١٨٤٥ صار حكام ماردين يراجعون والي دياربكر . وبعد هذا نصب انيس باشا متصرفاً وظل الى ٢١ تموز ١٨٨٩ وفي زمانه احترقت القيصرية التي كان يشغلها تجار النصارى فالتهمت النيران بضائعهم واموالهم واودت بحياة غير واحد من شبانهم ورجالهم . ولما كان رمزي متصرفاً لماردين سنة ١٨٩٥ ثار المسلمون على ارمن دياربكر وخربوط واورفا وسويرك وماردين وغيرها فاحرقوا وسلبوا وقتلوا وسبوا كما سترى

الفصل التاسع

مساوئ ولاة ديار بكر

اعلم انه مذ أُلقيت مقاليد ماردين الى ولاة دياربكر تعددت عليها الارزاء والنكبات حتى صارت الى الضعضعة والدمار. على انهم لا خلف الله عليهم بخير تحكموا في اهاليها المسلمين والمسيحيين معاً واستبدوا بهم وكلفوهم ما لا يطاق من الضرائب في هذه السنين الاخيرة ليحتنوا ديار بكر السوداء وضربوهم ضربة معضلة قصمت ظهرهم وكادت تدخلهم في خبر كان

على اننا رأينا حقيقة ذلك بأم عيننا خاصة في عهد رشيد والي دياربكر الطاغية فان ابليس الخنّاس باض في راسه واقتعده ريثما سوّل له ان يضم اليه أحزاب الشر فاوقع بالنصارى الابرياء وساقهم وقتلهم وسباهم ونهبهم . وانتقى لتنفيذ خبيث مآربه قوماً من مروّجي سوء افكاره كخليل اديب رئيس الجزاء والحاج زكي واخيه وبدري وممدوح وتوفيق وهارون وغيرهم ممن سترى اسماءهم . واوفدهم الى ماردين الامينة فانفجروا عليها حاملين أوامره الناطقة بهدر الدماء واستباحة العذارى والنساء واجلاء النصارى عن البلاد والفتك بهم في التلال والجبال والاودية والبراري . فانكشفت اذ ذاك الاحقاد المستورة وتهاترت الشهادات الزورية وانجلت الحزازات وراح كل يحفر الحفائر للنصارى كما يشاء هواه . حتى انه في اوجز مدة انقلبت الولاية انقلاباً عظيماً فأقفرت من السكان واحمرّ بساط اراضيها بدماء الابرياء الاطهار وامست في حال يبكي لها الجماد

الفصل العاشر

الدولة الارمنية

عُرفت منذ القرن السادس قبل التاريخ المسيحي امة تكلمت بالارمنية وسكنت نواحي اراراط الجبلية . اما بلاد الارمن فيحدّها شمالاً البحر الاسود وبلاد الكرج وشرقاً الكرج وبلاد العجم وجنوباً كردستان والجزيرة وغرباً آسيا الصغرى

وكانت ارمينية خاضعة لصولة الاشوريين تارة وطوراً لصولة

البابليين واستقلت آونةً من حكم كاتا المملكتين · وكان شردوري اول من ملك ارارطو او ارمينية سنة ٨٨٥ ق م وخلفه ارامي وجرت بينه وبين شلمناصر † ٨٢٥ ق م الحروب الشتى حتى ان شلمناصر قصد ارزشخون شمالي وان سنة ٨٥٨ ق م وقاتل ارامي وقتل من جنوده ٣٤٠٠ نسمة ودمّر ارزشخون وسار الى بحيرة وان وغسل اسلحته وكتب ثم حادثة غلبته · ولما مات شلمناصر عصاه الارمن فسار اليهم ربشاقي وقوّض من بلادهم ثلاثمئة مدينة وقرية فهب ارغستس ملك الارمن وحارب شلمناصر الرابع † ٧٧٢ وانتصر عليه مرتين · غير ان تغلثفلسر الثالث † ٧٢٧ حارب شردوري الثالث ملك ارمينية سنة ٧٥٦ ق م في دسبان او هي وان وقتل من جنوده ثلاثة وسبعين الفاً واستحوذ على عجلاتهم واسلحتهم واحرق خزائن مملكتهم ونقل تخت ملكهم الى نينوى

وظلّت ارمينية خاضعة لملوك بابل وآشور ومادي حتى ظهر الفرثيون سنة ٢٥٠ ق م فملكوها وجعلوا عاصمتهم مدينة ساليق وقطسفون او هي المدائن

ولما قويت شوكة الملوك الرومانيين دوّخوا ارمينية وانتزعوها من يد الملوك الفرثيين فقاتلهم ارطبان الرابع واستخلص منهم بلاده وملّك عليها ارشاق ابنه البكر سنة ١١ بعد المسيح · وسنة ٦١ ب م سار ولغش الى ارمينية وحصر الروم الذين فيها واضطرهم الى مغادرتها

وفي ٢٨ نيسان ٢٢٦ شد اردشير بن بابك راس الملوك الساسانيين على بلاد الفرثيين وظفر بارطبان ملكهم ودوّخ المدائن عاصمتهم فانهزم الفرثيون الى جبال ارمينية وتركوا خزائنهم واسلابهم غنيمة

للعدو · ومذ ذاك نشأت مملكة ارمينية الفرثية

وظل الفرثيون دهرًا طويلًا يحكمون في ارمينية وينصبون لها الأمراء والبطارقة والولاة من الارمن حتى غدت راتعة في بحابح الامن والطمأنينة · وسنة ٨٥١ طمع فيها المتوكل خليفة بغداد وولّى عليها وعلى أذربيجان يوسف بن محمد · وما وصل الى خلاط حتى سارع اليه بقراط بن اشوط بطريق الارمن فاحتال عليه يوسف وأوثقه وحمله الى المتوكل · فاجتمع بطارقة الارمن وتحالفوا على قتل يوسف فوثبوا به في قلعة موش في شدة من البرد وكلَب من الشتاء وقتلوه [تاريخ الدول لابن العبري ص ٢٤٧]

وساعد ملوك الارمن الخلفاء العباسيين فيما بعد وعضدوهم حتى انه في عهد المعتصم زحف سهل بن سنبلاط البطريق الارمني الى بابك عدو الخليفة وأسره وبعث به الى الافشين فحمله الى المعتصم فأمر سيّافه فقطع يديه ورجليه ثم ذبحه وشق بطنه وانفذ راسه الى خراسان وصلب بدنه بسامرا · فاضطر الخليفة لذلك ان يجامل الارمن ويحسن معاملتهم

ولعب ملوك الارمن في عهد المغول او التتر دورًا مهمًا اذ كان لهم نفوذ عندهم حتى ان أخا التكفور ملكهم حضر سنة ١٢٤٦ مع امراء البلاد حفلة تتويج كيوك خان ملكاً على المغول فأحسن كيوك خان اليه وكتب له العهود · وكان كيوك خان يُعز النصارى ويكرم المطارنة والاساقفة والراهبين فصارت الدولة المغولية مسيحية وارتفع شأن طوائف الفرنج والروس والسريان والارمن · والتزم الخاص والعام من المغول وغيرهم ممن هو بينهم ان يقولوا في السلام

بارخمور ܒܪܟܡܪܝ بالسريانية اي بارك مالكي

وسنة ١٢٥٢ توجه حاتم ملك الارمن من سيس عاصمته الى مونككا قان ملك التتر فأعزّه الملك واحسن معاملته · ولما ملك على المغول اباقا ايلخان سيَّر صاحب مصر الى حاتم ليدخل في طاعته ويحمل اليهِ الجزية ويمكّن الناس من مشترى الخيل والبغال والحنطة والشعير والحديد من بلاده · غير ان حاتماً لم يجب الى طلبه فهجم المصريون على بلاد الارمن وحاتم غائب فاجتمع اخوته واولاده وامراؤه وجمعوا أَتباعهم وخرجوا ليهزموا المصريين فالتقوهم عند حجر سروند فانكسرت الارمن واستؤسر ولد الملك حاتم وقتل ولده تورس وانهزم الامراء والعسكر · ونهبوا واخربوا بيعة سيس الكبرى

واشتهر سنة ١٢٧٦ لاون ابن ملك الارمن وسار مع المغول الى الشام سنة ١٢٨٢ في عساكره فقهروا المصريين في حمص ورجعوا · وملك بعده يوحنا بيل وسُمي قسطنطين الثالث وخلفه اخوه كوفيدن † ١٣٣٤ ثم قسطنطين الرابع † ١٣٦٤ وفي عهده سار التركمان الى قلعة كابان وهي من امنع قلاع سيس وملكوها بالحيلة وقتلوا رجالها وسبوا النساء والاطفال · قال في ذلك ابن الوردي

صاحبُ سيس الجديد نادى كابانُ عندي عديلُ روحي
قلنا تأهبْ لغير هذا فهذا فتوحٌ على فتوحِ

ثم ملك ليون فشنَّ المصريون الغارة تكراراً على قيلقيا ونهبوا واحرقوا وقتلوا · وهجموا على سيس ودكّوا حصونها وفتحوا قبور الملوك والولاة واحرقوا عظامهم وأسروا لاون الملك واهل

بلاطه سنة ١٣٧٣ ومضوا بهم الى مصر وسجنوهم سبع سنوات فتوسط الحبر الروماني في مسألتهم وانقذهم من أسرهم · وسار بعد ذلك لاون الملك الى اورشليم وترك بها امرأته وبنته ثم ظعن الى رومة وزار اعتاب الحبر الاعظم وشكر لهُ فضله واحسانه وعاد الى باريس وفيها توفي في ٢٢ تشرين الثاني ١٣٩٣

اما تيمورلنك الطاغية فبعد ان دوخ بلاد ما بين النهرين سار الى سيواس وأمر جنوده فشدوا الاطفال في احدى البقاع وأوثقوهم بالحبال وأماتوهم بحوافر الخيل ودفنوا الشبان والنساء احياء وخنقوا المرضى والمقعدين والشيوخ · واصبحت ارمينية سنة ١٦٠٣ خاضعة لشهباز ملك العجم فنفث في الارمن سمه الزعاف وأخرجهم الى سهول اراراط واحرق دساكرهم وحقولهم وبساتينهم · واستاقهم كالخراف الى النهر واضطرهم ان يعبروه · فاختنق عامتهم الا من اعتاد السباحة · ثم ساق منهم زهاء اثني عشر الفاً الى اصبهان فمات منهم من مات اما من بقي فابتنوا لهم مدينة سنة ١٦٠٤ وظلُّوا نحو ثمانين سنة تحت نير العجم والأتراك · وسنة ١٨٢٦ استبدّ الروس بقسم من بلاد ارمينية فامسى الارمن والحالة هذه منذ اوائل القرن التاسع عشر خاضعين للعجم والأتراك والروس

فتفرق الارمن طرائق وتزرّقوا في تركيّا وروسيّا والعجم والنمسا والمجر والهند والكرج وبلاد الليه · ولمّا حارب روسيا السلطان عبدَ المجيد سنة ١٨٥٥ امر بهدر دماء الكثيرين من الأرمن والنصارى وجرى للأرمن مثل ذلك سنة ١٨٩٥ في بلاد ما بين النهرين · بل رأينا اعداء الارمن متحفزين لشرب دمائهم بعد اعلان الدستور ايضاً

حتى انهم سنة ١٩٠٩ ارتكبوا من الجرائم والفظائع في اطنه خاصة ما أنسى فظائع البوكسر في الصين فقتلوا وصلبوا واحرقوا وسلبوا وذبحوا وسبوا . فسودوا تواريخ تركيا بصفحة جديدة زادوها سوادًا على سواد في هذه الايام الاخيرة . ما قولك يا صاح في من فُطم على سفح الدماء البريئة وتعود الاثار من الامم المسيحية . لعمري انك مهما بالغت في تقبيحه وذمه قصّرت وما وفيته حقه

الفصل الحادي عشر

الكنيسة الارمنية

اعلم ان نجم النصرانية لاح في البلاد الارمنية في اوائل القرن الرابع للمسيح فان الله جلّت احكامه قيّض للارمن رسولاً غيورًا واماماً بطلا مشهورًا بشرهم بالديانة المسيحية وقادهم في المراعي الخصيبة وسقاهم مياه النعمة المستعذبة فاثمروا ثمارًا شهيّة ضاع عرفها وطاب مذاقها . وإنّ ذلك الرسول النبيل الا غريغور المنوّر الذي تنصّر على يده طريدت ملك الارمن وغدا من اكبر حماة الدين المسيحي واشهر الساعين في نسف صروح المذهب الوثني . والى هذا الحبر الشهيد يرجع الارمن وبه يتباهون ويتفاخرون لانه اول من انشأ لهم المدارس والاديار . ولما أقيم جاثليقاً نصب كرسيّه في اشميازين شمالي غربي بحيرة وان . وخلفه في الجثلقة على التتابع ابناؤه ارسطكس وورطان وهوسك المشهورون . وخلفهم نرسيس فرثيس † ٣٧٣ فأنشأ المشاريع الخيرية كالمستشفيات والمياتم والاديار

والمدارس . فاصبحت ارمينية في عصره كجماعة رهبانية ضمّها دير واحد ورئيس واحد . واشتهر اذ ذاك القديس مسروب وامتاز بغيرة عجيبة وشهامة غريبة فانه بعدما درس السريانية واليونانية في مدرسة القديس نرسيس الجاثليق قصد السيد اسحق الكبير الجاثليق ٣٩٠ — ٤٣٩ والملك بهرام شبوح واستشارهما في نشر الايمان باللغة الوطنية فأثنيا عليه وشجّعاه ليباشر العمل ويتقنه فسار الى الرها وسأل دانيال اسقف السريان ان يعلّمه الحروف الارمنية فشرع يدرسها دون ملل هو وجملة من الشبّان ثم توجه بهم الى سميساط ودرس اليونانية وحذقها . واستنبط اخيرا القلم الارمني باتعاب جزيلة واسهار طويلة . وعني اسحق الجاثليق بترجمة الاسفار المقدسة من السريانية واليونانية الى الارمنية وهو اول من عقد للارمن مجمعاً في فغرشباد سنة ٤٢٦ صار فيما بعد دستورًا لسائر المجامع . اما مسروب فصرف المساعي في وضع الكتب الطقسية والتآليف الروحية الكنسية

واشتهر بعد القديس مسروب القس لاون الارمني فانتخب رجالاً محنّكين نجّذهم في الجندية وسمّى لهم ورطان البطل قائدًا فزحفوا الى عسكر الفرس وكشفوهم عن ارمينية . وسنة ٤٨٨ سار واهان لمحاربة الفرس واستحصل للارمن الحرية الدينية التامّة وواصل الارمن شغلهم ونموا يوماً فيوماً بالتقوى والعلوم والمعارف

واشتهر في القرن السابع نرسيس الثالث الجاثليق فابتنى كنيسة جليلة في فغرشاباط سنة ٦٥٤ على اسم غريغور المنوّر ووضع فيها ذخائره الثمينة حملها فيما بعد متولّو الكنيسة الى نابلي فرومة . وقد اكتشف عام ١٨٩٩ الاب ددیان كاهن اشميازين على الكنيسة المشار

اليها فألفى على مسافة ساعة الى الشرق تلّا حفره فرأى تسعين عمودًا ووجد للكنيسة خمسة ابواب وخمسة مذابح . استنتج منها انها هي هي الكنيسة التي شادها نرسيس الجاثليق . وعثر فيها على كتابتين يونانيتين رُقم عليهما اسم نرسيس الجليل

واعلم ان كرسي جثالقة الارمن أُسس اولاً في فغرشباط ثم نقل الى سيواس فسيس فدير بزمّار بلبنان سنة ١٧٤٢ فالقسطنطينية وفي سلخ تموز ١٨٣٠ نصب بيوس الثامن للارمن جاثليقاً اسمه انطون نوريجان واضاف بيوس التاسع سنة ١٨٥٠ الى جثالقة الارمن مطرانيات واسقفيات شتى

وفي ١٢ تموز ١٨٦٧ ابرز بيوس التاسع براءته المشهورة رفرسورس Reversurus فيها ألغى البرءات وقرّر ان يكون الكرسي البطريركي في القسطنطينية وثبت السيد انطون حسونيان بطريركاً ولقبه ببطرس التاسع . غير انه اجتمع عام ١٨٧١ بعض الاساقفة وخلعوا البطريرك الشرعي واصطفوا عوضه السيد كوبليان مطران آمد وأضرموا نيران الفتن والاراجيف في الطائفة . وتعرّضت لهم الحكومة فضبطوا الكنائس والأوقاف واستحصلوا الاوامر بنفي السيد حسونيان فسار الى رومة . ولما نصب السيد اسطفان عازريان بطريركاً صرف الهمة القعساء والأتعاب الوافرة حتى اعاد المياه الى مجاريها

واذا شئنا ان نخصص الكلام في ابرشية الارمن بما بين النهرين قلنا ان ماردين كانت ولا تزال عندهم من اول الكراسي المطرانية اعتباراً للسيد ملكون طازباز المارديني المذكور في الخير ونظراً الى

كثرة عدد الارمن الكاثليك فيها . واليك سلسلة المطارنة الذين تولّوا رئاستها مذ ذاك حتى يومنا

١ً : السيد ملكون طازباز . اعلم اننا ما عدا السيد كاوسد ١٦٠١ ـ ١٦٢٠ والسيد سركيس ١٦٢٧ ـ ١٦٣٢ اللذين خدما ابرشية ماردين لا ندري مطراناً آخر للأرمن اذ ذاك غير السيد ملكون طازباز . فهذا اصطفاه الاب يوحنا سان منس سنة ١٦٤١ وأوفده الى عاصمة الكثلكة فدرس العلوم في مدرسة البروبغندا وارتسم كاهناً وعاد الى وطنه وجعل يشتغل في كرم الربّ دون ملل حتى استدعاه البطريرك بطرس بيسك الحلبي الكاثليكي ونصبهُ مطراناً على ماردين سنة ١٧٠٨ فرجع الراعي الجديد الى ابرشيته وطفق ينصح للارمن ليهجروا بدعتهم ويحنوا هامتهم لخليفة بطرس زعيم الرسل . فانجح الرب مساعيه وكلّل اتعابه بالتوفيق واليمن حتى ان عموم الارمن بماردين اعتنقوا الايمان الكاثليكي المقدس . وبعد ان قضى ستة اعوام في خدمة الرعية الجديدة ظهر عليه اعداء الكثلكة وأذاقوه الامرّين واستحصلوا الاوامر بنفيه الى القسطنطينية فزُجّ ثمّ في السجن واوثق بالسلاسل حتى قضى شهيداً سنة ١٧١٦

٢ً : وخلفه السيد مرطير مركار الامدي الذي اعتنق الايمان الكاثليكي سنة ١٦٨٥ وايّده الحبر الروماني مطراناً لماردين في ٢ آب ١٧٢٢ وحلّت وفاته سنة ١٧٢٧ ودفن في كنيسة مار جرجس بماردين

٣ : وقام بعده السيد ملكون ماركار شقيقه سنة ١٧٣٨ وتوفي في سلخ تشرين الاول ١٧٦٧

٤ : وخلفه السيد اوهنيس طازباز اقامه الكرسي الرسولي مطراناً لماردين في منسلخ نيسان ١٧٦٨ ومـا قضى ستة في ماردين حتى توجه الى رومة وفيها انتقل الى جوار ربه في ٣ نيسان ١٧٧٣

٥ : وتولّى الرئاسة بعده السيد يوسف بليط في ١٤ تشرين الثاني ١٧٧٢ وحلت وفاته في آب ١٧٧٣

٦ : ونُصب بعده السيد بطرس يفيزار تلميذ البروبغندا رقّاه ابطريرك ميخائيل الثالث في دير بزمار مطراناً لماردين وفاضت روحه بين يدي خالقها في ١١ تموز ١٧٨٧

٧ : وخلفه السيد يوياقيم طازباز تمطرن على ماردين في ايلول ١٧٨٩ ولفظ روحه في ٢٧ تشرين الثاني ١٨٣٦

٨ : وقام بعده السيد ابرهيم قنديلي رسمه سالفه مطراناً وجعله معاوناً له في تدبير الابرشية وتولى مكانه بعد موته وقُبض الى رحمة ربهِ في ٢٨ كانون الاول ١٨٣٨

٩ : ورُسم بعده مطراناً لماردين السيد يوسف فرّا الحلبي في ١٥ تموز ١٨٣٨ غير انه استعفى ولزم وطنه حتى توفاه الله في ١٧ ايلول ١٨٥٤

١٠ : وخلفه السيد جبرائيـل شاشاتي الحلبي رقاه السيد غريغوريوس الثامن الى المطرانية في ١٣ ايار ١٨٥٥ واخترمته المنية في غرّة سنة ١٨٦٣ ولُحد في مدفن اسلافه

١١ : وقام بعده السيد ملكون نزر رسمه مطراناً لماردين البطريرك غريغوريوس الثامن وخـدم الابرشية ستّاً وثلاثين سنة . وبذل المساعي في بناء كنيسة مار يوسف بماردين وكرّسهـا في ١٤

كانون الثـاني ١٨٩٤ واستأثر بهِ ربه في ١١ تشرين الاول ١٩٠٠ وله منشور طبع في ٢ نيسان ١٨٧١ كتب فيه ما نصه [قد حان لي ان انبهكم ايها الابناء المحبوبون وانوح عـلى الداهية التي اصابت جماعة من طائفتنا في الاستانة ودياربكر فان اربعـة اساقفة ضلّوا عن محجة الدين القويم وتحزّب لهم زمرة من الكهنة والعوام فنصح لهم الاب الاقدس فلم ينتصحوا ففصلهم من حضن الكنيسة المقدسة .. اني اذكركم بما كان يقول السيد ملكون طازباز الطيب الذكر وهو « اني اتضرع الى الله ليبعد كل هرطقة عن هذه الابرشية » فقد تمت رغبته الصالحة ولم يشرد احد منها عن الجادة القويمة حتى اليوم]

على ان اعداء الارمن الكاثليك شخصوا الى ماردين سنة ١٨٧٤ ودخلوا الى هيكل الله وطردوا المطران والقسّان من كنيستهم وجعلوا وجهاء الملّة تحت الراقبة فساروا الى كنيسة السريان الكاثليك وحلّوا فيها ضيوفا كراماً . وكانوا يقضون فيهـا الحفلات والطقوس البيعية بالمناوبة . حتى ان السيد ملكون نزر كتب في خطبته في غرّة سنة ١٨٧٥ مـا نصه « اني انتهز الفرصة لابدي لكم يا ابناء الطائفة السريانية الكرّمين واكهنتكم الغيورين ورئيسكم الجزيل الاكرام شعائر الحبّ والامتنان لمـا ابديتم نحونا نحن المضطهَدين من خالص الحبّ عربونا لتقواكم اذ تذكرتم قول يسوع « كلّما فعلتم ذلـك باحد اخوتي هولاء الصغار فبي فعلتموه [متى ٢٥ : ٤٠] كنت غريباً فآويتموني . نعم نحن غرباء السيد المسيح . غرباء حبّاً بايماننا واتحادنا غير المنفصم مع الكرسيّ الرسوليّ البطرسي »

ومـا اكتفى اعداء الكثلكة بذلك بل رفعوا الدعوى الى

المحكمة الدنية وطلبوا ان ينفى المطران وكهنته واستولوا على مال البرّ وأرزاق الفقراء . غير ان كاثليك ماردين غدوا وقت الاضطهاد كنبراس انار بلاد ارمينية جمعاء وكما انهم كانوا الاولين في الكثلكة غدوا الاوّلين ايضاً في المدافعة عن حوزة الايمان الكاثليكي بقولهم ومثلهم وعملهم فاستحقوا الثناء الطيب والذكر الجميل على تتالي الايام . وظلّ الارمن في كنيسة السريان الكاثليك حتى سابع شباط ١٨٧٦ فرجعوا الى كنيستهم وعادت اليهم حقوقهم المهضومة

١٢ : وقام بعد السيد ملكون نزر برعاية ابرشية ماردين السيد هوسيك كوليان تلميذ دير بزمار ارتسم مطراناً في سادس تموز ١٩٠٢ ومن مآثره ان اهالي تلّ ارمن لمّا اخنى عليهم الزمان سنة ١٩٠٣ وحصلوا في دعقاء الفاقة وتفرقوا في القرى المجاورة انتجاعاً للقوت سار اليهم بنفسه وارسل في استدعائهم الى قريتهم وبذل لهم مبلغاً وافرًا من المال حتى اصطلحت احوالهم وزالت ضيقتهم . ولحقه ضيم جسيم والمّ جزيل عام ١٩٠٧ لما استولت الحكومة على الاوقاف المكتوبة باسم سالفه السيد ملكون نزريان وجعلت تبيعها وتتصرّف بها . فهبّ الراعي النشيط لتأييد الحقوق المهضومة ووجد لسالفه المتوفى وارثاً شرعياً . فاستحصل اعلاماً ناطقاً بان تلك الاملاك تخصّ فقراء الارمن وأنّ راعي الابرشية هو المتولي عليها . وأسعفه في نيل مرغوبه جرجس افندي مناشي احمردقنه السرياني المحامي المشهور بماردين

والى هذا السيد الجليل والى الورتبيد اسهاك حولوزيان يرجع الفضل في مشترى بيت الدولباني بمبلغ اربعمائة ليرة وضمّه الى كنيسة

مار يوسف سنة ١٩٠٧ وكان اعداء الكثلكة متحفّزين الاستيلاء عليه . وعام ١٩١٠ عرض استعفاءه على البطريرك بوغوص ترزيان الثالث عشر فرفضه . لكن السيد هوسيك عاد الى دير بزمّار وكتب توًّا الى الاب الاقدس في تموز ١٩١٠ يالحّ عليه ان يقبل استقالته من الكرسي نظرًا الى شيخوخته وتأهباً السفر الطويل الى الابدية . فأجاب الحبر الروماني الى طلبه . وما برح السيد المشار اليه مقيماً بالدير يشتغل في ترجمة الكتب الدينية الى اللغة الارمنية . وقد صنّف كتاباً جليلًا في اخبار مطارنة ماردين سلفائه الطيبي الذكر . وأسعف الدير والابرشية بمبالغ وافرة خلّدت له الذكر الجميل على توالي الاعصار

١٣ السيد اغناطيوس مالويان

أبصر النور في ماردين في ١٥ نيسان ١٨٦٩ ودرس العلوم في دير بزمار . ونصبه الرئيس قبل ارتقائه الى الدرجة المقدسة مرشدا للاخوية وارتسم كاهنًا في ٦ آب ١٨٩٦ ومكث بالدير سنة ونصف سنة ثم سار الى الاسكندرية ومصر وخدم الطائفة فيها . واستدعاه البطريرك بولس صبّاغيان الى الاستانة وجعله كاتب سرّه . وعام ١٩١٠ شخص الى ماردين صحبة الاب يعقوب نسيميان فتمّ اتفاق الجماعة قاطبة على انتخابه مطرانا للابرشية . وفي ٢٢ تشرين الاول ١٩١١ ارتسم مطراناً في عاصمة الكثلكة وقفل راجعا الى ابرشيته وطفق يرعاها بالحزم والغيرة . وكان متضلعاً بالامور ريّان من المعارف الدينية والعلوم الادبية خبيرًا بالارمنية والفرنسية والعربية والتركية والانكليزية وكان ذا المام باللغات الشرقية كالعبرانية والسريانية . وكان

موصوفاً ببلاغة المنطق يلقي الخطب الارتجالية النفيسة مستقياً المناهل الطيبة من الكتاب الكريم ومؤلفات اباء الكنيسة المشهورين

واعلم ان ابرشية ماردين الارمنيــة تشمل الموصل ودير الزور وبغداد والبصرة ولها بماردين كنيستان الواحدة قديمة على اسم جرجس الشهيد يرتقي عهدها الى القرن الخامس والثانية حديثة كُرست سنة ١٨٩٤ على اسم مار يوسف . وفي غربي ماردين قريــة تلّ ارمن عمّرها النصارى على أنقاض دُنيسر [قوجحصار] كان اهلها كلهم ارمن ولهم كنيسة على اسم مار جرجس . وللارمن دير على اسم بربارة الشهيدة في شمالي ماردين وهو من آثار السيد ملكون طازباز الطيب الذكر يقصده الزوّار كل سنة في الاحد الاول من شهر ايار ولهم كذلك دير على اسم يوحنا المعمدان في قرية الوسكية غربي ماردين تعهّده السيد اغناطيوس المذكور في الخير وعثر فيه على بعض الحجار القديمة والاثار الحريّة بالذكر . ولهم كذلك كنيسة في دارا وجماعة معدودة عُرفت منذ عام ١٨٥٦ كان لهم كاهن يدبر شؤونهم الروحية . وكان لهم ايضاً كنيسة على اسم مار يوحنا في ويران شهر وجماعة معتبرة وورتبيت يسوس نفوسهم . وكان لهم في ديركه كذلك كنيسة وجماعة وكاهن يرعاهم . واغلب هذه الرسالات لم نقل كلها قد تضعضعت في هذه الايام النحسة ولم يبق فيها سوى انفار قلائل

واعلم ان عدد الارمن الكاثليك في ماردين وضواحيها بلغ قبل النكبة الهائلة زهاء خمسة عشر الفاً . وكانوا باجمعهم كاثوليكيين تقيين لا يدرون التكلم بالارمنية بتة . واشتهروا بالمروءة والسخاء

والرسوخ في الـدين القويم . وكان المسلمون يحبونهم ويعزّونهم ويتردّدون اليهم ويبيعون ويشترون معهم . ولا ندري كيف تبدلت الحال في هذه الايام الاخيرة حتى أنه لم يبق منهم في البلد عند شبوب النيران سوى بعض عيال لا تتجاوز عدد الأنامل

ومن اشهر العيال الارمنية بماردين واكبرها أسرة بوغوص وكسبو وطازباز وكجو ومـالو وجنانجي وآدم وترزيباشي وكندير ونسمه وقره‌زوان وعين ملك وبطاني وشلمي وجاندري وتازا ومناظر وشدّ وخوجا يونان وقبلو وحنجو ومرشو وجرّو وترزي واحمراني الخ الخ ومنها ما يبلغ عدد افرادها مائتي نسمة بنيّف

فهؤلاء باجمعهم قـد سيقوا خارج وطنهم كالخراف الوديعة وأودي بحياتهم لغير سبب ولم ينجُ منهم الاّ من انهزم او اختفى .

ويجدر بنا ان نختم هذا الفصل بما كتبه البابا غريغوريوس الثالث عشر في رسالته المسطرة سنة ١٨٥٤ قال « ان طائفــة الارمن لا يُحصى عددها ولا يستقصى حدها مشهورة بالقــدم والاسم مستحقة بليغ الثناء لحبها للديانة المسيحية وثباتها فيها دون سائر طوائف الشرق »

الفصل الثاني عشر

الكنيسة السريانية

قلنا ان النصرانية ذاعت في بلاد ما بين النهرين منـذ القرن الثاني للتجسد وكانت الارامية او السريانية لغة المسيحيين الاولين فيهـا وقد ورد في اخبار السلف ذكر لاساقفة الرها وآمد وتلّ موزل

وكفرتوث وماردين ودارا ونصيبين وطورعبدين وراس العين وغيرها
كانوا باجمعهم يراجعون البطريرك الانطاكي . ثم انتشرت الرهبانية
في هذه البلاد فقوضت اركان الوثنية واحيت معالم الديانة المسيحية
ولما تهورت بلاد المشرق في بدعة الطبيعة الواحدة استحوذ
روساؤها على الاديار والكنائس واقاموا لهم بطريركاً خصوصياً
خلع الطاعة للبطريرك الانطاكي الشرعي . ثم طفق اساقفة السريان
مذ اواخر القرن الثاني عشر يرجعون رويداً رويداً الى طاعة خليفة
بطرس زعيم الرسل كموديانا مطران ماردين الرهاوي والمفريان يوحنا
ابن المعدني والبطريرك عبدالله اسطيفان والبطريرك نعمه اصفر
واثناسيوس بطرس ابن اخيه وغيرهم
وجعل بطاركة السريان مقامهم في دير الزعفران منذ القرن الحادي
عشر . وفي اواسط القرن السابع عشر اشتهر السيد اندراوس اخيجان
بن عبد الغال الارديني الشمسي[1] وارتسم بطريركاً على السريان عموماً
في ١٩ نيسان ١٦٦٢ وجال في بلاد ما بين النهرين . ثم عاد الى
حلب وفيها فاضت روحه في ١٨ تموز ١٦٧٧ ولكن السريان المنفصلين
نصبوا لهم بطريركاً آخر فانقسمت الكنيسة السريانية قسمين الى
يومنا هذا يراجع احدهما فقط الحبر الروماني في مسائل الدين طبقاً
لسنن السلف
وخلف السيد اندراوس اخيجان السيد اغناطيوس بطرس

[1] [illegible] احا يوسف اخيجان اللقب يوسف سوي يقطن

شهادين † ١٧٠١ ثم تُوج السيد اغناطيوس ميخائيل جروه بطريركاً
انطاكياً في دير الزعفران على عامة السريان † ١٨٠٠ وخلفه السيد
اغناطيوس ميخائيل ضاهر † ١٨١٧ فالسيد اغناطيوس سمعان زوره †
١٨٣٨ فالسيد اغناطيوس بطرس جروه † ١٨٥١ فالسيد اغناطيوس
انطون سمحيري † ١٨٦٤ فالسيد اغناطيوس فيلبس عركوس † ١٨٧٤
فالبطريرك اغناطيوس جرجس شلحت † ١٨٩١ فالبطريرك اغناطيوس
بهنام بني † ١٨٩٧ فالبطريرك اغناطيوس افرام رحماني ١٨٩٨ الذي
اقام السيد ثوفيلس جبرائيل تبوني نائباً عاماً الطائفة على ماردين
وتوابعها وسنكتب في الجزء الخامس من هذا المؤلف فصلاً في مآثره
واعلم ان للسريان القديم في ماردين كنيسة قديمة على اسم
شموني الشهيدة جُددت سنة ٧٦٤ م ودير في جنوبي البلد على اسم
مار ميخائيل الناسك جُددت كنيسته سنة ١٧٠٤ م وفيه ضريح القديسة
سيراس سنة ٧٨٥ م ولهم كنيسة حديثة على اسم مار بطرس أنشئت
سنة ١٨٨٥ وتجددت سنة ١٩١٥ ولهم كنيسة في حي الشمسية على
اسم مريم الطاهرة أنشئت سنة ١٨٨٧
اما كنيستهم الكبيرة فهي على اسم مار بهنام ورفاقه الشهداء
الاربعين . وليست من الابنية القديمة . ويتبادر الى الظن انها بُنيت
في اواخر القرن الثاني عشر ذلك بعد ما استحل المسلمون كنيسة
الاربعين شهيداً ودار المطرنة سنة ١١٧٠ وضموها الى الجامع
واستحوذوا كذلك على كنيسة مار توما الرسول كما ايد ذلك ابن
العبري والمؤرخ الرهاوي في تاريخيهما
اما السريان الكاثليك فكانوا بادئ بدء قد تفردوا بكنيسة

الفصل الرابع عشر

المرساون اللاتينيون

لا يسعنا ان نحصي ما للمرسلين الفرنج من جليل المآثر وكثرة الاتعاب وجليل المبرّات التي أسنوها المسيحيين في بلاد الشرق . على انهم بغيرتهم المشهورة اكتسبوا للكنيسة الكاثليكية جماهير غفيرة والفوا منهم طوائف معتبرة خضعت كايام الكنيسة الاولى للسدة الرسولية . وطالما هدّدتهم تركيا وانزلت بهم ضروب النكال والعذاب والنفي فكانوا يحتملون ذلك كله بوجه طلق وقلب جذل حبًّا لانتشار الايمان المقدس

واذا رمنا ان نخصص الكلام بما اصطنعوا في ماردين وتوابعها من العوارف قلنا انه في نواحي سنة ١٦٣٠ وافى اليها نفر من الرهبان الكرمليين وجعلوا يرشدون الارمن الغريغوريين والسريان المنفصلين وينصحون لهم ليعودوا الى طاعة خليفة إمام الرسل الحبر الروماني فأتت اتعابهم باشهى الثمار حتى انه لما شخص الى ماردين الاب يوحنا سان مَنس سنة ١٦٤١ اصطفى السيد ملكون طازباز ولقنه مبادئ الايمان الكاثليكي وأوفده الى مدرسة البروبغندا برومة فأتقن العلوم وعاد الى وطنه فتيسر له ان يمحق البدعة بالمرّة ويؤلف جماعة كبيرة من الارمن الكاثليكيين اضحت قدوة حسنة لسائر المسيحيين الوطنيين

وعام ١٦٨١ يمّم ماردين الاب ميخائيل نو اليسوعي يصحبه الاخ

هيلار فثار عليهما ثائر السريان المنفصلين وحبسوهما زمانًا ثم اديا غرامة باهظة وعادا إلى حلب سنة ١٦٨٢ لكن الاب ميخائيل لمزيد غيرته عاد الى ماردين بزيّ طبيب مستصحباً الاب يوسف بتون والاخ هيلار المذكور فتبعهم قوم من الشمسية عاندهم بطاركة السريان فعادوا الى حلب ثانية وجرى مثل ذلك الاب يوسف رايه الكرملي الذي قصد ماردين سنة ١٦٩٠ ورحل عنها الى بغداد بدسائس اعداء الايمان

ووُجد في ماردين سنة ١٧٧٠ الاب اوجينو والاب انجلو فصرفا المساعي في نشر الايمان الكاثليكي لكنهما لم يتوفقا كثيرًا . وسنة ١٧٧٥ شخص الى ماردين الاب اغناطيوس الكرملي وابتنى دارًا سكنها وحضر بنفسه في دير الزعفران حفلة رسامة السيد ميخائيل جروه بطريركًا لعامة السريان سنة ١٧٨٢ ولما نفي البطريرك المغبوط فوّض الى الاب المشار اليه رعاية السريان الكاثليك

واتى الى ماردين سنة ١٨٣٨ راهبان من الكبوشيين تبعهما عام ١٨٥٠ الاب يوسف لابررد اليسوعي وسار الى مديات وابتنى فيها كنيسة هي الى يومنا في حوزة السريان الكاثليك

واقام السيد نقولا كستلس القاصد الرسولي في ماردين حتى سنة ١٨٧٠ ففاضت فيها روحه ودُفن في كنيسة الاباء الكبوشيين . وخلفه السيد زكريا القاصد الرسولي وتوفي كذلك في ماردين ولُحد في الكنيسة المذكورة

وتناوب الاباء الكبوشيون في خدمة كاثوليك ماردين منذ اوائل القرن التاسع عشر واشتهر منهم الاب يوحنا الذي زيّن

الكنيسة بالنقوش المستبدعة والصور المستملحة حتى دعاها الاهالي كنيسة النجوم وتمّ بناؤها سنة ١٨٨٤ وولي رئاسة الكنيسة بعده الاب مرسلينو وجرت في عهده مسألة انضمام جماعة من طائفة السريان الكاثاليك الى الكنيسة الكبوشية فصدرت الاوامر من لدن الكرسي الرسولي بان يعود كلّ الى طقسه

وقام بعد الاب مرسلينو الاب دانيال وكان بمعية الرئيس كاهن او كاهنان من الكبوشية يتوليان تعليم الشبية[1] . ووافى في تلك الغضون راهبات فرنسيسيّات ابتنين مدرسة وديرًا مصاقبين لكنيسة الاباء الكبوشيين وخصصن حياتهن لتعليم الفتيات الاصول الدينية والاشغال اليدوية

وقد اقفر في هذه الايام النحسة كلا الديرين وخرب منهما ما خرب وأمرت الحكومة بتقويض الحائط الجنوبي وضمت ساحة الدير الداخلية الى الجادة العمومية . وجعلت كلا الديرين مستشفى للمرضى من العسكر حتى يومنا

(١) عرف في عهد رئاسة الاب مرسلينو والاب دانيال الكبوشيين الاخ سلفادور وكان له المام بعلم الطب نجح فيه نجاحًا باهرا وجمع مبلغًا من الدراهم اشترى به املاكًا وقرى من جملتها بساتين آفه هناره قيدها في سجلات الحكومة باسمه واتفق ان رئيسه اضطره ان يبعدها الى الدير فابى وقصد السيد بطرس بطريرك السريان المنفصلين فرسمه كاهنًا واستحصل له تذكرة نفوس عثمانية وما عتم ان ندم على زلته وسار الى كنيسة الكلدان وتوفي في نواحي سنة ١٨٩٣ وعالج بطريرك السريان الاستيلاء على متروكاته المنقولة وغير المنقولة فلم ينجح ولما خلفه البطريرك عبد المسيح راجع النظارة الخارجية في الاستانة فلم يستفد شيئًا . وظلت الاملاك في قبضة الحكومة وزادت علينا انها اختلست جميع اوقاف الكنيسة المومى اليها في يومنا وتصرفت في ريعها

الفصل الخامس عشر

المرسلون البروتستان

اعلم انه في اواسط القرن التاسع عشر وافى من الموصل الى ماردين الشماس ارميا والقس ميخائيل والشماس صليبا الموجي بغية اذاعة البرتستانية فيها . وتبعهم المستر مارش والمستر وليمس والمستر هسكل الطبيب . فاستأجروا لسكناهم بيت الشعّار . وكانوا مذ ذاك يصيفون في ماردين ويشتون في الموصل . واقتفرهم القس سركيس الداراويّ

وعام ١٨٥٩ شخص الى ماردين المستر وليمس القس البرتستاني الاميركيّ وعاد الى بيروت سنة ١٨٦٠ فوافى بعده المستر اندرس والمستر بوند في ثامن تشرين الثاني ١٨٦٨

وتبع البرتستان اولاً سعيد دكدان وميخائيل عيسى وسعيد بريخان وعبد المسيح اسبير وحنا الشماس بطرس وايلياً حنّاوي وداود العطّار والياس القس الياس وجرجس هلولي . وجعل المرسلون يتوافدون الى ماردين منذئذ كالمستر دوه والمستر بيل والمستر وكر والدكتور تام سنة ١٨٧٧ والمستر كيتس سنة ١٨٨٢ واصطفوا سنة ١٨٦٧ جرجس بن عبد الاحد هدايه اليعقوبي النحاة بمثابة اسقف ومبشر الجماعة المستحدثة

وعام ١٩٠٤ وافى الى ماردين المستر امرك وواصل البروتستان شغلهم وابتنوا محلًا كبيرًا لسكناهم في غربي البلد فتحوا فيه

مدرسة ومستشفى

وفي غرّة سنة ١٩١١ وقع خلل بين الجماعة أسفر عن تشعبهم شعبتين شرقية وغربية حتى ثاروا بالاسقف في مصلّاهم فأنزلوه من المنبر وطردوه خارجاً ونظموا جمعيــة تنظر في اصلاح الشؤون . فاختار الحزب الشرقي ابرهيم شنخور وحبيب كجو وجرجس مارينــا واصطفى الحزب الغربي يوسف قره كله وملكي شنخور وحنا القس وصادقت جمعية الاصلاح على انتخابهم ونصبوا المستر اندرس لرئاسة الكرسي . ثم انتخب الحزب الشرقي سعيداً عيسى والحزب الغربي عبد الكريم قره كله وكان هذا الحزب يقضي فروضهُ في بيت حنا الازرق وذلك في بيت الاميركان وبيت يوسف حوّاطو .

وكانت الدراهم السبب الفرد للتحزب والشغب على ان البرتستان باعوا بيت خضرشا وجعلوا المبلغ في صندوق جمعية البورد منذ عام ١٨٦٧ اذ كان ملكون بآزيز الارمني قــد اشترى منهم تلك الدار بثلاثمئة ليرة عثمانية . ولما قبضوا الدراهم أقرضوهــا بالفائض في المائة عشرة حتى بلغ مجموعهــا ستمائة ليرة . فقرّر المرسلون ان يوضع المبلغ في صندوق البورد ريثما يتيسر لهم ان يشيدوا به كنيسة فجمعوا سنة ١٩٠٧ من ذلك المبلغ اربعمائة ليرة . وظلت البقيــة عند الجماعة يطالبونهم بها فلا يؤدونها فثار لذلك ثائر من لم يصبه شيء وجنف عن الطريق السويّ وحنق على من تمتع بها دونه

ومذ سنة ١٨٧٦ دوّن البرتستان اسماء جماعتهم وعرضوها على الحكومة فحرّرت اسماءهم في الجلد الرابع واستعرفتهم طائفة قائمة بذاتها . وفي ١٧ كانون الاول ١٩١٠ حرّر سعيد عيسى وكيل الملة

ورقة استدعى بها الجماعة ليختاروا اسقفاً جديداً فامتعض الاسقف جرجس وراح ينصب للمصلّى اعضاء سذّجاً من بنابيــل والقصور وقلعة المرأة واجاز لاهالي القصور وقاش ان يتزوجوا بامرأتين

ولما قام اعداء النصرانية عــلى قدم وساق في حزيران ١٩١٥ واثاروا المشاغب والفتن وألقوا المسيحيين في السجن ومثلوا بهم وقتلوهم عذّبوا وقتلوا في جملتهم جماعة من وجهاء البرتستان ايضاً كيوسف قره كله وابنه سليم وابرهيم بن ملكي شنخور وعبد الاحد يوسف باهي وسليم جرجس نقاش واخويه ووليمس بن جرجس هدايــة الاسقف وعزيز بن جرجس عيسى وعزيز كجو وسموئيل مختار وحنا الازرق والاسقف حنوش وسعيــد عشو وغيرهم . فصرف المستر اندرس والدكتور تام الساعي في إنجائهم فلم يستطيعوا الى ذلك سبيلاً فساقوهم في عاشر حزيران مع القافلــة الاولى وفتكوا بهم بين شيخان وزرزوان

وظلّ المستر اندرس والدكتور تام في ماردين حتى ايلول ١٩١٥ فغادراها غصباً الى سيواس . قيل ان الدكتور تام لما خرج من محله وركب عربة السفر لحقه كلبه الامين فاخذ يلقه ويقول «هلم يا كلبي فأني لم اجد اصدق منك في هذه البلدة على اني بالرغم عمّا نلته من المشقات في تمريض اهــاليها مجاناً لم أرَ منهم سوى النبي مكافأة لأتعــابي والسلام»

وما وصل الدكتور الى منفاه بسيواس حتى قضى نحبه . امــا المستر اندرس فتوجه الى اميركا وفيما كان عائداً الى المشرق لقي حتفه في الطريق سنة ١٩١٩ اما المستر امرك فوصل الى حلب في نيسان

١٩١٩ حاملًا الامتعة والاسعافات للمنكوبين فاخترمته المنية في ايار ١٩١٩ على اثر خروجه من الحمام

الفصل السادس عشر

نكبات سنة ١٨٩٥ المعروفة بالثورة

عثرنا ما بين اوراق القدسي حبيب دي جروه احد وجهاء الطائفة السريانية الكاثليكية بماردين على كراس كتبه بخطّ يده ضمّنه حوادث النكبات الفظيعة التي اصابت نصارى دياربكر واورفا وخربوط وسيواس وساسون وما جاورها من القرى أحببنا ان نلخّصها للقراء لما لها من العلاقة بحوادثنا الحاضرة

واعلم ان القدسي حبيب هو احد افراد اسرة دي جروه الحلبية النبيلة المشهورة بمناضلتها عن حوزة الايمان الكاثليكي منذ اواسط القرن الثامن عشر وهو ابن ملكي بن جبرائيل ابن الشماس يوسف ابن المركيز ميخائيل ابن الكافلير جبرائيل ابن الشماس نعمة الله بن ميخائيل بن عطاالله دي جروه . وكان جده جبرائيل انتزح عن حلب وطنه وصار الى ماردين واستطاب مناخها ولبث بها . وقد لاح من هذه الاسرة الكريمة انجم ثواقب اناروا القلوب بباهر اشعتهم وظهر منهم أبطال بواسل دافعوا عن المنتمين الى الايمان الكاثليكي وحموا ذمارهم في حلب وماردين بسطوتهم ونفوذهم . واشتهر منهم السيد غريغوريوس شكرالله دي جروه مطران اورشليم † ١٧٧٣ والبطريرك ميخائيل المغبوط † ١٨٨٠ والبطريرك بطرس

السعيد الذكر † ١٨٥١ والخوري رافائيل † ١٨٩٢ بن فتح‌الله دي جروه والقس ميخائيل † ١٨٦٦ بن شكرالله ابن الشماس نعمةالله دي جروه

وكان القدسي حبيب كسائر اجداده الأعلام النبلاء متصفًا بوطيد ايمانه ومزيد غيرته وسافر مرارًا الى سوريا . وفي ٤ حزيران ١٩١٥ أُلقي القبض عليه وضُمّ الى النصارى المسجونين . وبعد ستة ايام سيق معهم الى خارج البلد وقُتل شهيدًا . قال رحمه الله :

١ : دياربكر

في غرّة تشرين الثاني ١٨٩٥ شبّت نيران الاضطهاد على المسيحيين عمومًا وعلى الارمن خصوصًا في بلاد ارمينية . فشمّر وجهاء المسلمين بدياربكر كجميل باشا واولاده وبهرم باشا وعبد القادر باشا ابن الحاج جرجيس آغا الارديني وبكر افندي محرّم زاده ونظيف بك ابن سعيد باشا ونيازي مأمور الشعبه وعارف برنج وابرهيم افندي صاحبه والحاج مسعود نقيب الاشراف وغيرهم وكتبوا الى جميع الاكراد والعشائر يستعدّونهم على النهب والقتل . ووعدوهم ان حين حضورهم الى دياربكر يدفعون لهم الاسلحة الكافية ليفتكوا بالنصارى ويحتووا على اموالهم . ثم صرّحوا لهم ان يوافوا عند الظهيرة الى جامع ولي جامي ويُطلقوا البنادق وينادوا « محمد صلوات » فيخرج من بالجامع وينضمون اليهم ويقصدون كنائس النصارى ودورهم وأسواقهم ليقتلوا ويسبوا . فما كان من الاكراد الا ان لبّوا الطلب واقبلوا بلفيفهم طبقًا للمؤآمرة . وقصدوا الجامع

المرقوم واطلقوا البنادق فخرج المسلمون واستبشروا بقدومهم . وراحوا يرومون الاسواق والمنازل . فبادر الارمن ليقفوا على الخبر فلما لمحهم المسلمون والاكراد صوّبوا نحوهم الرصاص فقتلوا منهم قسماً صالحاً وادّعوا انهم هم الذين هجموا عليهم غفلة ليفتكوا بهم في الجامع . ثم ساروا الى المخازن والدكاكين وقتلوا من بها ونهبوا قدر ما اطاقوا وعند غروب الشمس قلبوا زيت البترول على ما بقي بها من البضائع واحرقوها كلها فأمست دياربكر كلها عبارة عن اتون عظيم لا ترى سوى الدواخن صاعدة في الجوّ

فلما رأى ذلك النصارى أيقنوا بالهلاك والتلف واستحوذت عليهم الرعبة فقصد منهم كنيسة الكبوشيين ودار القنصل الفرنساوي حتى انه اجتمع في اوجز مدة عند الاب يوحنا الكبوشي زهاء اربعة آلاف نسمة واستمروا لديه ثلاثة ايام بلياليها كان يرسل اليهم الخواجا جبور قزازيان وجيه الارمن الكاثليك ما افتقروا اليه من القوت وواصل ذلك العمل مدّة عشرين يوماً فاستوجبت اريحيته الاثنية الكريمة وخلف الذكر الطيب في قلوب جميع المنكوبين

اما القنصل الفرنساوي فلما شاهد المسلمين والاكراد هائجين صعد إلى سطح القنصلية وتناول الراية واخذ يرفعها ويخفضها طالباً النجدة والمعونة . فاوفد انيس باشا الوالي الى داره عشرين جندياً ليحموه . وثابر المسلمون والأجلاف يقتلون وينهبون حتى صباح الاثنين رابع تشرين الثاني . فخرج عند ذلك الوالي والمطران عبدالله في نفر من الجند وطافوا ازقة المدينة يحرّجون الضرب والسلب على المشغبين . اما الارمن فلزموا بيوتهم يضربون من تعرّض لهم . وخرج الخواجا

اوسيب قزازيان كبير الارمن الكاثليك الى دار الحكومة يسأل الوالي ان يلقي القبض على اصحاب الفتنة لتسود الطمأنينة . فلقيه الوالي بأنف طويل ولم يكترث لطلبه . وما عتم ان أرسل في استدعائه وزجه في السجن واوقف معه الورتبيت ايزاكيل مرخص الارمن الغريغوريين وهاكوب آغا كوبنكيان وميناسيان ومنديلجيان وظلوا في السجن حتى ٢٠ كانون الثاني

وسبق الوالي فارسل في طلب البطريرك عبد المسيح من ماردين فركب من ساعته وقصد الولاية وما كاد يصل حتى سمع صوت اطلاق البنادق فاستدعى شاباً سريانياً دفع اليه رسالة ليوصلها الى الوالي يعلمه بقدومه . فتناول الشاب الرسالة وسار وما وصل الى سوق ميليك احمد حتى تعرّض له الاجلاف وقتلوه ووجدوا الرسالة في عبّه فمضوا بها الى الوالي لا يدرون ما مضمونها . ولما طالعها الوالي امر الفريق بارسال شرذمة من العسكر الى كنيسة السريان ليحموها . فسارع كثير من النصارى الى الكنيسة المذكورة حتى احتشد فيها ثمانية الاف نسمة في برهة يسيرة وانهزم ايضاً قوم من القرى المجاورة واتوا فانضموا اليهم

ثم اوفد الوالي في طلب البطريرك فسار اليه في حاشيته وكانوا يطأون جثث القتلى بأقدامهم . وألفوا دار الحكومة غاصة بالعشائر وهم يخترطون السيوف المضرّجة بدماء البشر . وكان عند الوالي اذ ذاك كبار المسلمين يتشاورون . فما سمعوا بقدوم البطريرك حتى ارفضّ المجلس وانصرف كلّ الى محله . فدخل البطريرك فاستقبله الوالي باكرام وقال له اصدر الامر الى عامة المسيحيين ليدفعوا

للحكومة ما عندهم من الاسلحة فوعده البطريرك بذلك . وعند عودته اوفد معه نظيناً وبكراً افندي واقبلا الى الكنيسة في جماعة من العسكر وبحثوا عن الاسلحة فلم يجدوا شيئاً فانقلبوا راجعين وباغتوا هم والاكراد دور الوجهاء ونهبوها وقتلوا من شاؤا واستحيوا من شاؤا وكسروا صناديق الجواهر واختلسوها وسلبوا البضائع والامتعة وظلوا كذلك ثلاثة ايام

اما اهالي ماردين المتوطنون بدياربكر فان بطريرك السريان جال الخانات والبلد في طلبهم واحضرهم الى الكنيسة وعين لهم الغذاء . وبعد ايام حضر البريد الى ماردين في عشرين ضابطاً حاملين الرسائل من وجهاء دياربكر الى المسلمين يقولون لهم « لو كنتم حقيقة مسلمين لافتعلتم بماردين ما افتعلنا بدياربكر » فقّم المسلمون في الشر طبقاً لشورتهم كما سترى

واستمر نصارى دياربكر في الاخطار والمخاوف حتى ١٨ كانون الاول ١٨٩٥ فحضر من العاصمة ثلاثة مفتشين وهم سامي بك وعبدالله باشا الفريق ويوسف رشدي . فسار الرؤساء الروحيون لزيارتهم فاستقبلوهم بالاكرام . ثم اندفع سامي بك يطمنهم ويؤمنهم ونشر ورقة يقرأ فيها ما نصه بتصرف « لقد تحقق لجلالة مولانا السلطان ما جرى من الوقائع المزعجة في بعض انحاء الاناضول كسامسون وسيواس ومعمورة العزيز ودياربكر لسبب ثورة الارمن وبناء على طلب روساء الولايات من الاعتاب الشاهانية قد صدرت الارادة السنية بارسالنا للتفتيش عما جرى واتخاذ الوسائل الفعالة لاصلاح الولايات وارجاع الراحة والطمأنينة اليها . فغادرنا العاصمة

وطفنا تلك الولايات فرأينا ان ما حدث فيها من الفظائع يفوق ما جرى في دياربكر فتأسفنا لذلك مزيد الاسف . ولا يخفى ان ما حدث حدث بدسائس البعض من الدول الاجنبية وفي مقدمتها الدولة الانكليزية فانها القت الفساد في قلوب الارمن فهاجوا في العاصمة وهجموا الباب العالي ظانين انهم يفوزون بخبيث مآربهم . ولم يكُ ذلك لمنافع الارمن بل لمنافع الانكليز اذ كانوا يحاولون ابتلاع البلاد دون غيرهم . فالذين اصاخوا لهم ركبوا طرقاً خشنة وصمموا على سحق عرش الدولة العلية خلافاً لارادة مولانا السلطان وأوامر انجيل سيدنا عيسى كما هو مقرَّر في كتبكم « ان من قاوم اوامر السلطان قاوم أوامر الله » فاعداء الدولة ألقوا الشاغب في بعض الممالك المحروسة ليسببوا الاضرار لعموم التبعة . فتأتى من ذلك ان الضرر شمل الدولة والملة معاً وتناول عامة المسلمين والمسيحيين . مع ان الدولة لا ترغب الا راحة عموم المنتمين اليها . على ان الرعية كلها في نظر الحكومة متساوية لا فرق عندها بين المسلم والمسيحي طبقاً للشريعة الاسلامية والنظامات السنية . ومما يؤيد ذلك انعامات جلالة مولانا السلطان عبد الحميد خان الثاني على المسيحيين بالرتب السامية والاوسمة الشريفة . لان المسلمين والنصارى في نظره هم على حد سوى . ولا فرق بين مال المسلم والنصراني

واعلموا ان ما قلناه منقول عن لسان الذات الشاهانية وها اننا بفضلها متخذون الاحتياط اللازم لراحة العموم . ولا يغلب على ظنكم ان الحقوق تُهضَم . كلا . بل لا بد من ان يعود لكل حقه »

ثم استتلى سامي بك يقول : اننا قبل حضوركم ارسلنا في طلب وجهاء المسلمين وبلغناهم الاوامر وصرحنا لهم بانهم هم والنصارى في عين الدولة ملة واحدة. وان التعدي والجسور لا بد من معاقبته . واوصيناهم ان ينبهوا سائر المسلمين ليحجموا عن الثورة . واملنا ان المسلمين والنصارى منذ الان فصاعداً يعودون الى ما كانوا عليه من الالفة والسلام . ونرغب اليكم انتم ايها الرؤساء الروحيون ان تبلغوا افراد طوائفكم ما بلغناكم . وترفعوا الادعية لمولانا السلطان ليزداد اقبالاً وانتصاراً على الدوام

وبعد هذا رجع الرؤساء الروحيون الى كنائسهم . اما الخواجا اوسيب قزازيان واصحابه المسجونون فانهم رفعوا الى المفتشين عريضة ليخرجوهم من السجن فاتاهم الامر في ٢٠ كانون الثاني ١٩١٦ بالذهاب الى العاصمة فاستصحب الخواجا اوسيب ابنه اوهنيس وحنا ابن اخيه وسافر معهم اربعة من وجهاء دياربكر المسلمين في شرذمة من الجند لمحافظتهم

وحضر بعد هؤلاء ثلاثة مفتشين آخرين وهم شاكر باشا وماردو قردادو الرومي وتحسين بك عرب وحلوا ضيوفاً في دار بهرم باشا عند باب الجبل. ووافى الى دياربكر في خامس شباط ١٨٩٦ مفتشان آخران احدهما روم ملكي اسمه اغوب باشا ونزلا في دار الحاج جرجيس آغا فافادهما ان عارف افندي برنج واحزابه كانوا اصل

(١) عن السجل المحفوظ لدى الخورفسقفس بشاره حداد السرياني كاتب اسرار البطريرك عبد المسيح

الفتنة . وفي ١٣ شباط شدّ المسلمون على اكوب خانجي في خان الباجية ومضوا به الى دجلة فقتلوه والقوه في النهر وعادوا . فاستحضرت الحكومة جثته الى الولاية ولما سمعت امرأته قصدت المفتشين وبلّغتهم أن ياسين آغا هو قاتل زوجها فلم يكترثوا لدعاها

وفي ٢٩ اذار شخص الى دياربكر معاون للوالي يقال له وغلهري وكان رومياً

وعند ذلك اطلقت الحكومة للنصارى الحرّية في السفر الى حيث يشاؤون . فغادر الولاية زهاء ثلاثمائة بيت في مدّة شهر ونصف . وباعوا اموالهم ودورهم بابخس الاثمان . وفي ١٥ نيسان توجه الى الاستانة اوهنيس وعبد المسيح قزازيان في اسرتيهما

اما المفتشون فبعد ان مكثوا زماناً في دياربكر سار عبد الله باشا احدهم الى الموصل وتوجه الاثنان الى خربوط وظلّ القومندان بدياربكر . وفي سادس ايار خرج انيس باشا الوالي الى القرى المجاورة يتعهدها وينظر ما حلّ بها . وفي ١٥ حزيران وافى الى ماردين عارف افندي برنج ونزل ضيفاً في دار سرّي افندي رئيس البلدية ثم نُفي الى الموصل وعاد الى العاصمة

٢ : السعديّة

.... السعديّة قرية الى شرقي دياربكر تبعد عنها ساعتين كان اهلها ارمناً وسرياناً يبلغ مجموعهم ثلاثمائة نسمة . ويوم الجمعة غرّة تشرين الثاني ١٨٩٥ وثب عليهم اعلاج الاكراد وقتلوا الرجال والاطفال وسبوا النساء والبنات ونهبوا الدور والدكاكين اما بقية المسيحيين فانهزموا

الى الكنيسة وأغلقوا الابواب فدمر الاكراد والجنود ونقبوا سطح الكنيسة وصبُّوا عليهم زيت البترول واحرقوهم قاطبة . اما الذين انهزموا من الابواب فاحتفُ بهم الاكراد وثاوروهم بالخناجر والسيوف وذبحوهم . ولم يبق من النصارى سوى ثلاثة رجال فقط لبثوا تحت جثث القتلى حتى انكشف عنهم الاعداء فخرجوا الى دياربكر ونجوا من القتل

٣ً : ميافرقين

ميافرقين بلدة قديمة اورد ذكرها المؤرخون البيعيون في القرن الرابع للمسيح واشتهر فيها خاصة مطرانها القديس ماروثا † ٤٢١ تقريباً . واهلها ارمن وسريان وبرتستان يبلغ مجموعهم زهاء الف نسمة . ويوم الجمعة عينه ثار الاكراد بنصاراها وقتلوهم ونهبوا اموالهم وسبوا نساءهم ولم يفلت منهم سوى اثني عشر رجلاً وثلاث نساء . وكان في تلك القرية ثلاثة ماردينيون فرّ الاثنان الى الولاية اما الثالث وهو ايليا مورو فانه جاهر بالاسلامية ونجا من القتل . واحتشد في الكنيسة زهاء سبعمائة نسمة فانقضّ عليهم الاعلاج واحرقوهم بزيت البترول . غير ان اولاد بدويل توماس الثلاثة لاذوا بمغارة داخل الكنيسة وظلوا ثلاثة ايام صائمين ثم خرجوا . وشدّ الاكراد على بيت صادفوا فيه امراةً حسناء فافترشوا عرضها وركبوا منها الفاحشة بحضور زوجها فرفع الزوج يده ليضربهم فأوثقوه وقطعوا يديه ورجليه وفتكوا به وانقلبوا الى المرأة فبتروا يديها ورجليها واستحيوها وكان لها رضيع في المهد تعذّر عليها ان

ترضعه فمرّ بها رجل خير واحضرها الى الولاية وكانت تمض بنواجذها على طفلها وترضعه الحليب . وظلّت كذلك حتى تصرمت حياتها

٤ً : قره باش

قره باش قرية في شرقي دياربكر تبعد عنها مسافة ساعتين اهلها كلهم سريان تعجّل اليهم الاكراد في اليوم ذاته ونشبوا ينهبون ويقتلون ويستبيحون ويسبون وظلوا كذلك مدة يومين كاملين لا تزداد قلوبهم الا صلابة وتوحشاً كحمير او جحاش ثار ثائرها . ولكنهم فاقوا الحمير بتوحشهم . « قيل لاحد الحمير نريد ان نصيرك كردياً فبات ثلاثة ايام كئيباً صائماً لا ياكل عليقه » وقصد الاكراد دار القس عبد الاحد السرياني وهو شيخ جليل والقوا القبض على اولاده واختلسوا منه سبعمائة ليرة وخمسمائة مجيدي وعرضوا عليه الاسلام فأبى . فذبحوا اولاده الواحد تلو الاخر تجاهه ثم وجأوا بطن امراته بالسكين فادموها وقتلوها وعوّلوا على ذبحه ايضاً . غير ان احدهم قال الاجدر ان نتركه يتعذب ويموت كمداً . وانقلبوا يجترحون المنكر مع بناته حتى خولط القس في عقله

٥ً : قطربل

وقطربل قرية على شاطئ دجلة يفصلها النهر عن دياربكر يسكنها ثلاثمائة عائلة مسيحية من سريان وبروتستان وارمن . هجم عليهم الاكراد غيلة من البرّ وعلقوا ينهبون البيوت والدكاكين فانهزم المسيحيون الى كنيسة مار توما يتقدمهم القس عبد الاحد

السرياني النشيط وجعل يشجعهم ويبث فيهم روح البسالة ويقرّرهم بخطاياهم ويزودهم بالقربان الاقدس . فما كان من العشائر الا ان شدّوا عليهم ونقبوا سطح الكنيسة والقوا عليهم التبن وقلبوا فيه زيت البترول فاحترقوا جميعاً وساعدهم الجنود فاطلقوا البنادق من دار الحكومة على من انهزم وقتلوه . وقبضوا على يوسف بن ميخائيل كدا الماردیني وأرادوه على الاسلام فأبى فقطعوا يده الواحدة فالثانية فكتفيه فقدميه فاعضاءه واخيراً حزّوا عنقه فخرّ شهيداً . وكانوا كلما بتروا عضواً يقولون له جاهر بالاسلامية فتحيا . لكنه لم يكترث لكلامهم . وافلت من القتل شمعون الشاب السرياني فعبر دجلة سابحاً وقصد بطريرك السريان فارسل معه شرذمة من الجند استحضروا من بقي من المنكوبين وهم عرجٌ وشلّ وعمي وعراة على آخر رمق وعُني البطريرك بامرهم

وقس على هذه الفظائع ماجريات سائر قرى دياربكر كالكعبية والجاروخية وخان آقبوار وارز اوغلي وقوزان وهولان وقاضيه وعنشا وصاتيا وصافيا وبطركية وقره كليسه وقرطه وقنقرط وقضا الابشيرية وقضا لجيه وقضا غرزان فان الاكراد والعسكر ثاروا بهم وقتلوهم واحتووا على اموالهم

اما نصارى علي بكار الكلدان والارمن فان وجهاء القرية احتالوا عليهم واقنعوهم ليمضوا بهم الى الولاية ويخلصوهم من العشائر ولما خرجوا عن القرية أوثقوهم جميعاً بحبل واحد واودوا بحياتهم قبل وصولهم الى البلد

اما سويرك فان الحاج عثمان باشا واخوته ضمّوا اليهم احزابهم

وشدّوا على المسيحيين واعملوا فيهم السيوف والخناجر يومين كاملين فذبحوهم وقتلوهم ولم يفلت منهم سوى اربع عائلات . وكان عدد القتلى اربعة الاف ونيفاً

٦ : الرها

اما الرها فان المسلمين قصدوا اولاً دار ساغاتيل [شاآثيل] احد وجهاء الارمن الغريغوريين وهجموا على ساكنيها واعملوا فيهم الخناجر والسيوف فبادر النصارى المجاورون الى السطوح لينجوا بنفوسهم وقفزوا الى ازقة المدينة فأدركهم المسلمون وعلقوا يضربونهم ثم شدّوا على البيوت وخطفوا الاثاث والمؤن والامتعة وساروا الى كنيسة الارمن الكبرى وعاثوا فيها متلفين ومجتاحين وقاتلين . ولما نما الخبر الى الحكومة ارسلت الجنود لمساعدة المسلمين فتألبوا عند جبل مار يعقوب واقسموا بالطلاق الثلاث ان يكتموا الامر عن المسيحيين . اما النصارى فاتفقوا على ان لا ينالوا احداً بضرر على الاطلاق . وبعد هذا تفرق المسلمون في احياء النصارى فرقاً فرقاً وحظروا عليهم الخروج من بيوتهم فحصل لهم ضيق شديد حتى انهم اضطروا الى ابتياع سطل الماء من العسكر بافحش الاثمان

ولما بلغ اليوم المعيّن المذبحة احتشد الارمن في كنيستهم الكبرى وقلاية مطرانهم ومدرستهم فغار عليهم المسلمون كأنهم من الوحوش وانزلوا بهم اشكال العذاب . وفتكوا بارواحهم داخل الكنيسة وخارجها . فغدت الدماء تجري كالجداول على الحضيض حتى امتلأت الكنيسة وتدفقت ما بين الجدران . وكان ابليس اللعين قد وسوس

اليهم فجمعوا الهشيم ووضعوه بين اخشاب واقبسوه ناراً فالتهم من افلت من النساء والاطفال حتى سال الشحم على الحيطان وامتزج بالدماء.

ولما بلغ ذلك السريان الكاثاليك صبغ اصفرار الرعب محيّاهم وارتخت عزائمهم فارتأى الخوري بطرس الامدي والقس افرام نقاشه الموصلي ان يلوذا بالمتصرف فاستصحبا الخواجا عبود غنيمه وذهبوا اليه واستحصلوا منه ثلاثة جنود رجعوا بهم الى الكنيسة وطفقوا يستحضرون اليها افراد الطائفة فاحتشدوا بها واوصدوا الابواب بالحجارة ايصاداً محكماً . وعلى هذا الاسلوب نجوا من القتل . وقصّ اثرهم في ذلك جماعة السريان المنفصلين . ولم يُقتل من غير الارمن سوى بطرس قندافت الحلبي الروم الملكي

٧ : تل ارمن

تل ارمن قرية بماردين في جنوبها الغربي تبعد عنها ثلاث ساعات اهلها جميعهم ارمن كاثوليكيون بينهم جماعة من السريان معدودة. وفي ٦ تشرين الثاني ١٨٩٥ سار اليها رشيد آغا الكيكية قائمقام الحميدية في جماهير من الاكراد والعشائر والجأ الاهالي ان يدفعوا له تسعين ليرة ليكشف عنهم الاعداء. فتلجوا الى كلامه فبذلوا له مطلوبه فاستزادهم اربعمائة ليرة وحصاناً مطهماً ثم طلب غير ذلك فاعطوه جميع ما اراد واحب يقولون الويل اهون من ويلين. وبعد ان استوفى منهم ذلك كله شنّ الغارة هو واصحابه على الاسواق ونهبوها وقصدوا الدور واستباحوها . فانهزم النصارى كعادتهم الى

الكنيسة

ولحق رشيداً واصحابه عشائر جبل عفص والغرس والدقورية والدنبلية . فاستدعوا النصارى وبذلوا لهم كلمة الامان واقسموا بالطلاق الثلاث انهم لا يسيئون اليهم . فخرجوا من الكنيسة وما حصلوا في البرية حتى شد عليهم الاكراد ونشموا يعرّونهم ويقتلونهم فانهزم منهم كثيرون وتفرّقوا في القرى المجاورة

وكان نصارى التل قد اوفدوا الى متصرف ماردين يطلبون النجدة فارسل اليهم صالح بن درويش علي افندي وبابا حسين وعلي النعلبند ومصطفى التراكي وحسين ترلي . وعند وصولهم الى القرية ظلوا واقفين يتفرجون على الاكراد ينهبون ويختلسون ويغتصبون . ثم خرج بعض الاهالي وتوجهوا في فيئة من الجند الى قرية علي مشمش فماردين وهم جياع عطاش عراة حفاة

وقصد الاكراد كنيسة القرية وهدّوا جانباً منها يقولون ان داخلها خزائن قديمة فلم يعثروا على شيء مما توهموا واقبل احدهم نحو صورة مار جرجس صاحب المقام فطعنها برمحه ومزقها فأصيب بضربة اليمة اودت بحياته

٨ : الكولية او القصور

القصور ويقال لها الكولية قرية في جنوبي ماردين تبعد عنها ساعتين اهلها سريان يبلغون زهاء ثلاثمائة بيت . فهؤلاء لما رأوا ما جرى في تل ارمن بعثوا وجهاءهم الى ماردين يستغيثون بالمتصرف ليمنع عنهم غارات الاكراد . فأوفد مائة عسكري يتقدمهم صادق

بك القائم مقام الحميدي وفؤاد افندي مأمور الرسومات وخليل عبد الو[1] ولما داروا الى القرية ألفوا النصارى محتشدين في الكنيسة فاخذوا منهم ما عندهم من السلاح وأكدوا لهم انهم ما جاؤا الا ليصونوهم ويكفوهم كل اذى وسوء

ولما مضى من الليل ساعتان اقبل اهالي الغرس واتفقوا مع الاكراد المحيطين بالقرية وجاهروا بالعداوة على النصارى . وصباح الجمعة نشموا ينهبون الدور ثم قتلوا زهاء خمسين نصرانياً وانهزم الباقون . اما النساء والبنات فحفظوا منهن من استحسنوا ثم احرقوا القرية فصعد الدخان والتبد في الجو . وكان بعض الاهالي قد رقوا الى سطح الكنيسة تاماً من القتل فتعجل اليهم الاكراد الاجلاف فجعلوا يلقون بنفوسهم الى اسفل . وكان بيد احد العرب حربة قصيرة ركزها في الارض فانهبط فوقها احد الرجال فخرجت الحربة من بطنه فانتزعها النصراني من موضعها وتناولها وانهزم . فسارع ذلك العربي اللئيم ليأخذها منه وهو يقول لاصحابه « اليكم هذا النصراني فانه اختلسني الحربة وانهزم » لعمري ان قتل البشر عند هولاء الاوباش الانذال كقتل العصفور بلا خلاف . اعاذنا الله من قسوتهم وتوحشهم

(١) هذا استترف اموال الاهالي واذاع ان الخضر ظهر له في الحلم واشار عليه ان يقصد المفتي ويقول له « اياك والمحافظة على النصارى لان المسلمين اذا حقنوا دماءهم ايدوا بساهم كفرهم بدينهم . ثم قال للمفتي لا يخفاك انه في شهر شعبان لن يبقى نصراني واحد على وجه الارض » ولما بلغ امره مسمعي المتصرف نفاه في ٩ اذار ١٨٩٦ من ماردين

٩ : بنابيل

بنابيل قرية في شرقي ماردين تبعد عنها ساعتين تكثر فيها الحدائق والكروم واهلها سريان وبروتستنت يبلغون زهاء مائة وخمسين بيتاً موصوفون بالجرأة والبطش . وفعل الاكراد والمسلمون باهاليها ما فعلوه بنصارى القصور من الجور والاغتصاب والقتل وذلك في تاسع تشرين الثاني . اما الباقون فقصدوا البلدة . وكانت الحكومة قد سيّرت لمحافظة القرية عبدي جابي والحاج خليل باشا في نيف وخمسين عسكرياً فاتفقوا مع الاكراد على خراب القرية وقتل المسيحيين كمألوف العادة

١٠ : قلعة المرأة ودير الزعفران

وما سمع نصارى قلعة المرأة ما صار بالقرى المجاورة حتى تركوا أموالهم وامتعتهم وشخصوا الى دير الزعفران واحضروا حروف المطبعة وصبّوها رصاصاً ليقاوموا الاعداء وظلّوا ثم خمسة ايام لم يُقتل منهم سوى ثلاثة رجال وعجوز . وبعد هذا هجم عليهم عبدي افندي اللازم في طائفة من الجند وصوّبوا نحوهم الرصاص فقتلوا منهم زهاء سبعين شخصاً . وأوفدت حينئذ الحكومة ثلاثين جندياً ارجعوهم الى قريتهم وأمنوا حياتهم

اما دير الزعفران فظل الاكراد يصوبون نحوه البنادق ثلاثة ايام فاوفد أنيس باشا والي دياربكر الاوامر الى المتصرف فبعث الى الدير جنوداً من الرجّالة والخيّالة يتقدمهم الشيخ محمد علي

الانصاري وهو رافع اللواء الاسلامي يأمر الاكراد ان ينكشفوا عن الدير . فابوا فاطلقوا عليهم البنادق وقتلوا منهم ثمانين كردياً بنيف . ولما دنا العسكر من الدير طلبوا من الراهب داود كبابه رئيسه ان يفتح لهم الابواب فلم يستحسن ذلك الا بعد ان طالع صورة التلغراف الوارد اليه من دياربكر . فدخلوا وصعدوا الى السطح وقاتلوا العشائر عامة يومهم حتى دحروهم

١١ : المنصورية

ويوم الثلاثا خامس تشرين الثاني شدّ الداشية والاكراد معاً على نصارى المنصورية فلاذ المسيحيون بجيرانهم الداشية والتمسوا منهم ان يدحروا عنهم الاكراد ويكفوهم شرهم . غير انه يوم الاحد عاشر تشرين الثاني اقبل نحو اربعة آلاف كردي من نواحي الزنّار واوقدوا النيران يستفرصون الفرصة للهجوم عند الصبح على القرية . فشعر بهم الجنود المقيمون في القامة واطلقوا عليهم مدفعاً اصاب منهم رجلين فاستدلوا من ذلك ان ليس للحكومة رضىً في الهجوم والقتل فعادوا ادراجهم مأيوسين

اما الداشية فانهم قبضوا من جيرانهم النصارى نحو عشرين الف غرش بصفة دية وغمضوا عنهم

١٢ : نصيبين وطورعبدين

ويوم الاحد عاشر تشرين الثاني ١٨٩٥ ثار الاكراد نصف النهار وانقضوا كالبواشق على حي النصارى بنصيبين . ونهبوا الدور والدكاكين وقتلوا خمسة رجال . فسارع عبد الرحمان شيخ طيّ

وهزمهم فتعجلوا الى القرى المجاورة وقتلوا من النصارى مائة نسمة ونهبوا الاموال وافترشوا الامتعة واحرقوا اربع عشرة قرية وانصرفوا

وفي ١٤ تشرين الثاني سار الاكراد الى قلث فخالفهم بكوات الصور ولم يدعوهم ينهبونها فصاروا الى مديات يوم الاربعا ٢٠ تشرين الثاني فهبّ لمحاربتهم الجنود والاهالي معاً فخابت آمالهم ورجعوا القهقرى وقصدوا بقية القرى فنهبوها واحرقوها وابقوا على النصارى الذين فيها

١٣ : ويران شهر وديركه

ويران شهر وتعرف قديماً بتل موزل بلدة قديمة في ما بين النهرين جدّد بناءها قسطنس الملك سنة ٣٥٧ م يسكنها زهاء ثلاثة آلاف نسمة من المسيحيين قصدها عشائر الاكراد في ٣ تشرين الثاني ١٨٩٥ وطافوا أسواقها واستلبوا اموال النصارى فبادر ابرهيم باشا كبيرهم وانبهم واستعجلهم على الرحيل عنها فانصرفوا . وبكّروا في الغد يريدون قتل المسيحيين فركب ابرهيم باشا في رجاله فكشفوا الاكراد واخذوا منهم ستة حصن وشيئاً من السلاح والمتاع

وحضرت اذ ذاك قافلة كبيرة من حلب حاملة البضائع الى تجّار ماردين فثبّطهم الباشا عن مواصلة السفر حرصاً على حياتهم وضناً باموالهم ودوابهم . وأمر اصحابه ان يقدموا لها العليق والعلف عشرين يوماً . ونقل البضائع الى داره . ولما صمّموا على الرحيل بعث اليهم تلك البضائع فحملوها الى ماردين . غير ان التجار لما فتحوها ألفوها ناقصة وقد اعتاضوا عن البضائع بزبل الدواب .

نصف الليـل فتمكن المشكوية من قص جناح تلك الفتنة فتخلع المجلس وعاد كل الى بيته

وعند عودة احمد آغا واخيه الى بيتهما مرّا بدار اسكندر آدم وكان المؤلف رحمه الله حاضراً فقصا عليه ما جرى واوضحا له كنه المؤآمرة . ثم سارا الى دار خضر افندي فأخذها وانطلق الى كنيسة الارمن فاطلعوا السيد ملكون نزريان طلع الامر فشكر لهم فضلهم واثنى على محبتهم واخلاصهم

واما الجلبي ومرعي وحسين بن حسن ونجيم التولي وشيخي الاعرج وحجي القهوجي ويوسف بـك واخوه وسائر من حاكاهم بالنفاق والشر فظلُّوا يدقون بطنبورتهم ويحاولون البلوغ الى امنيتهم . واستبردوا لسانهم خاصةً على الخواجا يوسف جنانجي . فنهض اذ ذاك خضر افندي واستصحب الحاج حسين والبكباش والشيخ محمد علي الانصاري الى قلاية مطران الارمن السيد ملكون فارسل في استحضار الخواجا يوسف المذكور وتداولوا ساعة في الامر حتى تم الصلح بين الطرفين

وما عـدا الخسائر والمظالم التي اصابت المسيحيين فان المسلمين كانوا يقذفون من افواههم كل قبيحة ويشتمونهم ويقولون علامَ نبقي على هولاء النصارى الكفرة الخنازير اللاعين اعداء الدين . ما ضرنا لو قتلناهم عن آخرهم واستبددنا باموالهم واملاكهم . اما كان ذلك أزكى وافود لنا

وفي غرة سنة ١٨٩٦ لفَّقوا مضبطة تستر على ما جرى وتنطق بانّ النصارى بفضل الدولة العلية متمتعون بالامن والراحة وانـه لم

يحترق في ناحيتنا سوى قريتين فقط . ودفعوا تلك الورقة الى عبد المسيح حناشي ليعرضها عـلى الرؤساء الروحيين ليمضوها فامضوها لخوفهم ووقّعوها

واتفق ان عبد المسيح شهرستان زار محمد آغا شيخ المشكويّة وأطلعه على ذلك فامتعض الشيخ اي امتعاض وعوّل هو واصحابه على محاربة المسلمين والنصارى معاً لانهم شهدوا زوراً . فتمّ في المسيحيين ما قيل

تصبحنا الايام كلّ صبيحة   ببادرة تربو على أخواتها

اي ولعمري لولا هذا الرّجل المفّل لاصبحت قيمة الحمار عشرة آلاف غرش . كيف لا ونحن نحاول رتق الفتق فينفتق في ستمائة وستة وستين موضعاً . على ان محمدا سعيد آغا وشقيقه احمد آغا وافيا منزعجين الى دار اسكندر آدم وافاداه عما سبق واعلنا له مضمَرات قلبهما . لكنه بعد اللتيا والتي تمكن من اطفاء النيران وكفّهما عن فكرتهما

وفي غرة شباط ١٨٩٦ وصل الى ماردين متصرف جديد اسمه شاكر باشا فانقلع نائب المتصرف الخبيث الى دياربكر عشّ الفساد . وكان خليـلًا لانيس الطاغية حاول ذات المرار ان يفتك بالمسيحيين طبقاً لدسائس واليه فلم ترجح والحمد لله كفّته . واعلم انه بمجيء المتصرف الجديد استتبّت الراحة في البلد فانه يوم وصوله اطلق من السجن اسقف البرتستان واخاه يعقوب ومعلم مدرستهم ونجدي ورائه وسعيد عنبر اغاسي وكانوا قد زُجّوا في الحبس لسبب رسائل كتبوها الى ذويهم واصحابهم وضمّنوها اموراً سياسية .

وشخص الى ماردين في ٢٠ نيسان مفتشان احدهما نصراني اسمه

زادت كل من الدول الضرائب على الغلات والحاصلات والمواشي والبضائع توفيراً لماليتها وثروتها وتحسيناً لمصالحها ليسهل لها الفوز بامانيها . والله وحده يعلم ما كان يحدث من المناقشة بين الملوك والنفور بين الاهالي والقال والقيل بين الوجهاء والاقطاب . وأضف الى ذلك ان اية الجمعيات الاشتراكية والفرمسونية كانوا يُثيرون الخواطر ويهيّجون الافكار ويضرمون جذوات المشاغب بين جماهير الامم ليتم لهم الفوز بما يرمون اليه . اذ كان قتل الابرياء وابتزاز الاموال ونهب الدور والاستيلاء على الاملاك والامر بالنفي والسجن جائزاً مستحباً عندهم

واتفق ان احد جنود الصرب فتك في ٢٧ حزيران ١٩١٤ بولي عهد النمسا وزوجته فاستحذ هذا الحادث شفار السخط والغضب واثار اعصار الفتن وألهب جمرات الاحقاد في بلاد النمسا حتى هاجت النفوس وماجت وطلبت الانتقام من الجاني فأوفدت الحكومة تفتش عن المجرم وتتهدد الصرب وتطلب انزال العقوبة بالقاتل الخائن . غير ان الصرب لم تكترث لذلك فراحت النمسا تلحّ في المسئلة وتلحف في التعقيب لتقتصّ ممن تعرّض لها واهان شرفها . وما كان منها الا ان اشهرت الحرب على الصرب في ٢٨ تموز ١٩١٤ فلما بلغ ذلك مسمعي قداسة الحبر الروماني بيوس العاشر اوفد الى امبراطور النمسا يستنزله عن رأيه وينهاه عن تخضيب شيخوخته بالدماء . غير ان روسيا ما سمعت تلك الحادثة حتى بادرت الى تعبئة جيوشها وارسالها الى حدود النمسا وتخوم المانيا . فزجرت المانيا عليها زجرة الاسود وكشفت عن ساقها لتخوض معامع الحرب نائرة عليها وعلى بريطانيا وفرنسا وكانت

تظن بل تتأكد انها تفوز بالغلبة وتحرز قصبات السبق وتمد شوكتها على غير مملكتها بل كانت تحسب ان ارجاع ولايتي الالزاس واللورين مثلاً الى فرنسا اوهامٌ غريبة واضحوكة او اضغاث أحلام . ولكن

تجري المقادير التي قدرت   وانف من لا يرتضي راغم

فتأتى من ذلك ان فرنسا وروسيا تجهزتا للمعاركة . وفي رابع آب تبعتهما انكلترا وأثارت اليابان فانضمت اليها كما انضم الصرب والجبل الاسود . فاندفعوا كلهم كالسيل الجارف وانقضوا انقضاض الجوارح على الفرائس ليكتسحوا اعداءهم من عالم الوجود ويريقوا دماءهم . وتحزب لالمانيا والنمسا تركيا وبلغاريا . اما ايطاليا فلزمت الحياد مدة ثم كان من امرها ما كان

وعند ذلك ارتجت الارضون وتزلزلت اسسها وزُعزعت اطنابها ودب الخوف والرعب في الافئدة وسرى الفشل في النفوس وجمدت الدماء في العروق وامسى العالم في حيرة عظيمة وأهوال جسيمة . لان المواثيق نُقضت والعهود نُكثت والامانة فسدت والراحة سُلبت . فانحدر الشبان والكهول الى حومات الوغى وكلٌّ يؤمل النصر والظفر لغايته ويجرّ النار الى قرصه . والله وحده يعلم كم من دماء هُدرت ونساء ترمّلت . وامهات أُثكلت . وبيوت أُقفرت . وعائلات اندثرت . وكنائس دُمّرت وقصور دُكت ورُدمت . واديار تضعضعت وخربت . وبالجملة نقول كأنها القيامة قامت والدينونة العامة صارت تلك نتائج الحرب الاليمة وعواقبها السيئة الوخيمة . فلولا ان رب الجنود ترك لنا بقية يسيرة لصرنا مثل سدوم واشبهنا عمورة [اشعيا ١ : ٩]

الفصل الثاني

تركيا والحرب

معلومٌ ان تركيا قبل اعلان الحرب كانت مائلة لالمانيا مشايعة لنياتها . وكان غليوم قد صرّح غير مرّة بحبه الخاص وميله الشديد الى تركيا بقوله المشهور « فليتأكد المسلمون الثلاثمائة مليون المنتشرون على وجه البسيطة أن القيصر الالماني صديقهم الحميم ما توالت الايام » محاولاً بقوله هذا ان يشبّ جذوات البغض والحقد في قلوب رعايا الانكليز المسلمين لينهضوا على بريطانيا ويخلعوا طاعتها وينحرفوا عن الخضوع لها . غير ان عود الشجرة عُجم قبل ايناع الثمرة فان المانيا ما كادت تشهر الحرب المشؤوم حتى قامت تركيا على قدم وساق لتخوض معها غمرات القتال لانها كانت متعلقة بها بروابط تعاهد وثيقة محالفةً لها في جميع مقاصدها . فعلقت منذ اول يوم أُشهرت فيه الحرب تعبي الجيوش وتحشد الجنود وتهيء الذخائر لتساعد المانيا وتمنع غارات الاعداء عن وطء بلادها . وصرفت المانيا جل المساعي في تعزيز تركيا وتقويتها بالاسلحة والجنود وبذلت قصاراها في اصلاح ماليتها وإكثار ثروتها والاخذ بساعدها لتبلغها أمنيتها كما اقرّ غير واحد من ساسة الاتراك . بل بعثت الى تركيا نخبة من ضباطها تولوا تنظيم جيوش الاتراك وترتيب أمورهم . وأوفدت بعثة اخرى قامت بشؤون الاسطول العثماني وأرسلت رجالاً خبيرين محنكين لادارة فروع الاعمال وقدمت للحكومة العثمانية قروضاً بلغ مجموعها تسعة

وعشرين مليوناً من الليرات تقريباً

وما مرّ الشهر على اعلان الحراب الشعواء حتى صرّحت النمسا والمانيا كلتاهما بصدق ودادها وحميم حبها لتركيا واعربتا عن نياتها في مصالح الباب العالي ورغبتها في ترقيته ذروة الشرف والعزّ . ودفعتا تركيا الى الغاء الامتيازات الاجنبية فالغتها من حالق طبقاً لمشورتها وحسبتها هباء منثوراً . فعادت الكلمة اليها ورجعت الى حكمها بالرغم عن ارادة انكلترة وفرنسا وغاب عنها وهي ثملة بشراب النصرة المزعومة انّ الغاء تلك الامتيازات سيكون باعثاً لانحطاطها وخيبوبة آمالها

فالصلة بين المانيا وتركيا كانت بلا ريب متينة والعلاقات كانت وثيقة مكينة وتصريحات ملك المانيا اقوى برهان على إخلاصه لتركيا ورغبته في سعادتها واستقلالها تام الاستقلال ونيلها الحياة الطيّبة والحرّية التامة لتفعل ما تشاء . وافضى الامر بعاهل الالمان الى ان صرح مراراً بأنه يصبو بكلّ عواطفه ان يكون الدين الحنيف محترماً معزّزاً في اوربا وأن تكون حرّية المسلمين مكرّمة اينما وجدوا بحيث لا تقوى عليها زعازع الانكليز ولا زماجر الفرنسيس . وعربوناً لصدق وداده أمر بتشييد جامع كبير ومنارة شاهقة للمسلمين في حاضرة ملكه شهد بنفسه حفلة افتتاحه بينما كانت دماء المسيحيين تهراق وتسفك في بلاد الاتراك فهذا كلّه اضطرّ تركيا ان تشاطر المانيا وتساعدها بكلّ طاقتها : فأصدرت الفتاوى وبثّت الاوامر بوجوب الجهاد العامّ وجعلت تحشد العساكر وتجيش الجيوش وتتلاعب كما تهوى بأموال العباد واراقة الدماء واثقة كل الثقة بالنصر النهائي والمستقبل الحسن متأكدة أنها تعود الى سالف مجدها وترجع اليها حريتها

واستبدادها وترفل بحلل الشرف والافتخار وتتوج بتاج العز والانتصار . ولكن الامور انقلبت والآمال حبطت والأماني خابت وأخفقت . حتى اضطرت كل من المانيا والنمسا وتركيا الى دفن آمالها حيث دفنت جثمان الأبرياء الاطهار . فانكسرت والحالة هذه شوكة زهوهم وفلت عزائمهم وتجرعوا كؤوس الذل والصغار

وبناء عليه نقول إن تركيا امست ميتة بتدبير أنور تلميذ المانيا وزميلها . فهذا كان في قبضة سفير الالمان يلعب به كما يشاء ويشاء الزمان . على ان خراب تركيا لم يكُ بلا ثمن فان أنور تناول المبالغ الجسيمة من المانيا وتركيا لقاء موتها ودمارها حتى بلغت حصته فقط سنة ١٩١٦ اربعين مليوناً فامسى في اقدر مدة من اغنى الناس وأثراهم ولم يزل يحشو الاموال ويقلع هذا وينصب ذاك حتى قلع هو ايضاً وفر منهزماً الى البلاد التي كان يحبها (يعزها) وينفذ الوسع في اعلاء شأنها وانحطاط مملكته حباً لها . وقد كان أعرف من غيره بحال دولته لا يجهل ان الاتراك ضعفاء عاجزون عن مصارعة الدول العظيمة وان الدوائر ستدور عليه وعليها معاً . ولله در من قال

حسنت ظنك بالايام اذ حسنت   ولم تخف سوء ما يأتي به القدرُ
وسالمتك الليالي فاغتررت بها   وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ

الفصل الثالث

احتجاج على المانيا والنمسا

اعلم ان ملك المانيا جاهر سنة ١٩١٠ بحميم حبه لتركيا رغبةً

في توثيق عرى الوفاق بين بلاده وبلادها . وشعر المسلمون في الشرق بتقرب المانيا الى عنصرهم ولاسيما بعد القرض العثماني حتى اصبح مسلمو الهند والعجم وتركيا يعتبرون الامبراطور الالماني كحامي الاسلام في العالم [المشرق ١٤ : ١٣٠]

فاذ كانت الحال على هذا المنوال فكيف جاز للنمسا المملكة الكاثليكية ان تجاري المانيا وتوافقها في الحكم على قتل المسيحيين لغير ما سبب . بل كيف أتيح لالمانيا عينها وهي مملكة مسيحية وفيها اليوم من الكاثليك ما يناهز الثلاثين مليوناً ان تثير في رجال تركيا عوامل الشحناء والبغضاء وتشير عليهم في هدر دماء الابرياء . أيتيسر لها ان تنكر ان سندرس ممثلها في الاستانة أمر ان يُقتل المسيحيون ويُعذبوا افظع العذابات ويعاملوا اشنع المعاملات . ليت شعري أما كانت تعرف المانيا ان تركيا لا تخطو خطوة ولا تشور مشورة ولا تبرم امرًا ولا تبت حكماً الا بمعرفتها او مشورتها او رأيها . فكيف سمحت لها نفسها الابية ان تطلق عنان الحرية لتركيا لتستبد بالنصارى وتعاملهم أجفى معاملة مما لم يرد مثله في وقائع التاريخ الغابرة . لعمر الحق انه لا معذرة لكلتا الدولتين النمساوية والالمانية فقد استوجبتا لوم العالم اجمع واستحقتا ان يُخلَّد لهما في بطون التواريخ نقطة سوداء شنيعة لا تمحى على تتالي الاعصار

نعم يجدر بنا ان ننحو باللائمة خاصة على المانيا وان نتشكى من سندرس ممثلها في عاصمة الاتراك وترفع صوت احتجاجنا بكل طاقتنا ليسمعه جميع اقطاب الارض وسكانها فيقبلوا على توبيخها وتبكيتها ويقتصوا منها حسب ما تستحق وتستوجب . لانه كان

في وسعها ان تتلافى كلّ الشرور وتتدارك جميع الاخطار وتقطع اقدام الخونة الاشرار . ولكن هيه . فان المانيا تشرفت بالمحاماة عن بيضة المسلمين وتباهت بصداقتها لهم بل لما كانت تركيا تفتك وتسبي وتختال وتزني كان الالمان يشيدون للاسلام جامعاً في بلادهم . نعم ان الالمان في ثالث عشر تموز سنة ١٩١٥ يوم سيق رجال المسيحيين ونساؤهم احتفلوا في عاصمة ملكهم احتفالاً شائقاً بافتتاح مسجد عظيم بُني خصيصاً للمسلمين حاكى اجمل مساجد الشرق . وحضر افتتاحه مختار باشا السفير وألقيت اثناء ذلك الخطب البليغة في اطراء الالمان والشكر لهم على معروفهم واحسانهم وابتنوا الى جانب المسجد منارة شاهقة بلغ علوها ثلاثة وعشرين متراً يرتقي اليها المؤذن في الاوقات المعينة ويسمع صوته كل من حوله . وما اجدرنا ان نذكر هنا ما تفوه به احد رجال المانيا وقت سكرته بصهباء النصر قال : اننا سنضمّ الينا بلجكا الخبيثة لتكون لنا بمثابة قبضة حديدية نحطّم بها هامة انكلترا » . وقال غيره ممن جاراه في البغض للبشرية « يجب ان لا نترك لاعدائنا سوى العيون للبكاء » وكتب الماني آخر ان ليس للحكومات الصغيرة حق في الحياة الا قدر ما تدافع عن نفسها . يا للعجب والخيلاء

فويلٌ للبشر لو كانت خرجت المانيا من الحرب فائزة منتصرة . فانها ما اكتفت ان تصرّح باقوال كهذه بل أفضت بها الخيانة الى ارسال اربعة جواسيس الى دورتيول وفيها عدد من الارمن المتنفذين وامرتهم ان يتظاهروا بانهم من الانكليز . وما وصلوا الى حيث قصدوا حتى اجتمعوا بالاهالي واستكتبوهم المضابط الناطقة بالقدح

في تركيا واستعجال الانكليز اليهم لينقذوهم من مخالب الاعداء . ثم حملوا تلك المضابط الى العاصمة في كانون الثاني ١٩١٥ وأثاروا الاتراك وشغبوهم على المسيحيين ولاسيما على الارمن فثار ثائرهم الحال واشاطوا دماء النصارى وعملوا في هلاكهم

ايتيسر اذاً لالمانيا بعد هذا كله ان تعتذر او تدّعي بان لم يك لها يدٌ في مذابح النصارى . كلّا . أما كان يسعها ان تنهى تركياً النهي المطلق عن إلحاق العار بالنساء والفتيات وعن هضم حقوق الاقليروس والاساقفة والشيوخ وعن اهراق دماء الرضعان والصبيان وسوق من كانوا في عنفوان العمر وريعان الشباب . بلى . لقد كان في قدرتها ان تبعث الى كلّ بلدة من بلاد الترك نفراً يمثلها كي يحامي عن المسيحيين الابرياء ويصون حقوقهم . ولكنها بعملها هذا أكّدت انها تتمدّح بقهر النصارى وتتبجح بقسرهم . وما النصارى في تركيا الا كغنم وديعة تسير اينما أُمرت وتُذبَح وهي صامتة ساكتة

على انا لسوء الحظ لم نرَ احداً من النمسا ولا من المانيا استقبح ما اقترفته تركيا . او دافع عن حقوق النصارى . بل اطلقتا لها الحرية التامة وحرّضتاها على افتعال الشنائع والمنكرات . حتى أننا يوم وافى الالمان الى بلاد ما بين النهرين بعد المذابح والسبي خلتنا انهم يساعدونا ويكشفون عنا الضيم والضنك ولكنهم لم يستعرفونا قطعاً واصلاً . بل ثووا في بيوتنا وغضوا عيونهم عن مواصلة المظالم واجراء التعدّي علينا . وكان جل اهتمامهم في مصالحهم الخصوصيه ورفع شأن دولتهم وبسط سيطرتهم على جميع الممالك ليس الا

ومن ثم فلا حرج علينا ان قلنا ان الله جلت احكامه اورث

المانيا وتركيا معاً عاراً وهبوطاً وخسائر جسيمة هيهات ثم هيهات ان تتلافى فصارتا احدوثة تتناقلها الالسن وتقبح اعمالهما وامستا تعضان سنّ الندم على ما فات ولات ساعة ندم . على انه سبحانه وتعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وقد جعل عز شأنه لكل شيء حداً يوقف عليه . ومن تجاوز في الاشياء حدها اوشك ان يلحقه التقصير عن بلوغها والمتجاوز الحد والمقصر عنه سيأن بالنسبة اليه لان كليهما زائغ عنه في الحالين جميعاً [كليلة ودمنة ص ٧٧]

فالمانيا تجاوزت حدها في المظالم وقصرت عن منع تركيا حليفتها عن ارتكاب المنكرات والجرائم فألحق بهما الحق جل وعلا عقاب ظلمهما وتعديهما وجعلهما منبوذتين في اعين الممالك والامم

ونختم احتجاجنا هذا بما جاء في الكتاب عن بلشصر لما ظهرت اصابع يد انسان وكتبت تجاه المصباح على كلس حائط قصر الملك « منا تقل فرسين » فتغيرت لذلك سحنة الملك واقلقته افكاره وانحلت عقد حقويه واصطكت ركبتاه . فاستحضر دانيال النبي . فقال له ان الله تعالى آتى نبوكدنصر اباك الملك والعظمة . فلما ترفع قلبه أنزل عن عرش ملكه وجعل مع الوحوش وعلف العشب كالثيران وانت يا بلشصر ابنه مع علمك بكل ذلك لم تضع قلبك بل ترفعت على رب السماء فأرسل من كتب هذه الكتابة . ومعناها أحصى الله ملكك وانهاه ووزنت في الميزان فوجدت ناقصاً فقسمت مملكتك ودفعت الى ماداي وفارس [دانيال ص ٥]

الفصل الرابع

اعتداء الاتراك

اعلم ان للحرب شروطاً وقوانين وسنناً لا يجوز الدولة المحاربة او المدافعة ان تتعداها او تخالفها . وقد سبق ارباب الممالك المتمدنة فوضعوا مراسيم تعاهدوا على احترامها واشترعوا نظامات للعمل بحسبها تخفيفاً لويلات الحروب وتعديلاً لبلاياها فأمسى تخطي تلك الحدود وخرق ذلك النظام مجحفاً بحقوق الدول منافياً الشفقة والحنان مناقضاً للمبادىء الصوابية لا يرضاه الله ولا يقبله انسان . على ان الحرب قبل كل شيء يجب ان تحصر بين جيشي الدولتين المتحاربتين فقط فلا تتناول الافراد دع الشيوخ والفتيان والعذارى والنسوان

واول قانون دولي للحرب سن في الولايات المتحدة سنة ١٨٦٣ فكان اقرب العواطف الانسانية واوفق للعمران والمدنية . وعقد في ١٨ آب ١٨٩٩ مؤتمر دولي في لاهاي أبرمت فيه السنن القويمة وشرعت فيه القوانين المعتدلة وصادق عليها مندوبو اثنتين وعشرين دولة كانت تركيا من جملتها . ويستخلص من تلك السنن ان جنود الدولتين المتحاربتين هم وحدهم الاعداء فلا يجوز الحاق الاذى بغيرهم ولا التعرض لحريتهم . بل تعاهد الدول على حرمة اعراض النساء وعلى اجلال الاديان وصيانة الاهالي . فلا يجوز جرح احد منهم او تعذيبه او اهانته او معاملته بالقسوة والخشونة فان معاملات كهذه تستلزم انزال العقاب بالجاني عند كل الدول . وزد عليه ان الحقوق

الشخصية والملكية والادبيـة والصناعية يلزم ان تبقى مستمرّة ثابتة يُعمل بها على كلّ حال طبقاً للمبدا الاساسي « الافراد ليسوا اعداء »

ليت شعري ما قول تركيا في هذه السنن والقوانين اما حسبتها كلها لغوًا او حبرًا على ورق مذ نشمت في الشر وجاهرت بالظلم والغدر . وتترّعت الى الرعايا بالعدوان والمكر . بلى . اما شطّت في الحكم وجارت في القضاء وسلكت طرقاً خشنة محرّمة وافتعلت افاعيل شنيعة . بلى . أما فتنتها نفسها الامارة وغرّتها الاماني فارتكبت كل محظور وممنوع لا رادع ردعها ولا وازع وزعها . بلى . اما نفت الابرياء وقتلت الاطهار ومثّلت بالنصارى وذبحت الرجال والنساء دلالة على توحشها وبربريتها . بلى . أما عاملت المسيحيين معاملة آثم الجناة من دون ان يتيسر لها البتة ان تثبت عليهم جناية او جريمة واحدة بلى . اما نشرت اجنحة التعدي على المظلومين وحصرتهم في ملزم غدرها وخيانتها وجعلتهم مُقرَنين في اصفاد خبثها ورداءتها . بلى . اما ثبّطتهم عن المدافعة عن نفوسهم واعراض امرهم الى المراجع الكبرى وحرّجت عليهم المراسلة بالمرّة وسدّت دونهم طرق كلّ احتجاج وافتأّت بالحكايات المموهة الكاذبة ارواء لظمأها وتشفياً من اعدائها . بلى . بلى . فقد سلبتنا تركيا خلافاً للعدل جميع حقوقنا واستباحت أعراضنا واستحلّت دماءنا وسلبتنا اموالنا واملاكنا واستحوذت على كنائسنا وأديرتنا . وساقت رجالنا ونساءنا يحفّ بهم جنود اوغاد خالعو العذار عرّضوهم للاهانات والعار . وطوبى لنا لو اكتفت تركيا بذلك ولم تمد يدها الاثيمة الى التمثيل بنا

واهدار دمائنا واذاقتنا الموت الاحمر . على انك ايها القارئ النجيب المهجة اذا طالعت اخبار اعصار الجاهلية والهمجية يوم لم تك شريعة ولا كتاب ولا آمر ولا ناصح ولا واعظ ولا زاجر وقابلتها مع حوادث عصرنا المنوَّر ألفيت بينها بوناً شاسعاً وفرقاً عظيماً ولست تغالي ان قلت ان تلك العصور بالنسبة الى هذا الزمان كالنور بالنسبة الى الظلمة والتمدّن الى الهمجية

فقد تفننت تركيا بادئ بدء في ايجاد الذرائع واستنباط الحيل لتظهر على النصارى وتثأر منهم واتصلت الى ما لم يتصل اليه الابالسة على كثرة خبثهم وشديد دهائهم فادّعت اولاً ان عند النصارى اسلحة ومدافع ثانياً ان لهم معاطاة ومخابرات مع الدول المقاومة لها والمحاربتها . ثالثاً . ان للنصارى جمعيات سرية تحاول سلب حقوق تركيا والاستيلاء على مملكتها . لعمري ما الذبابة وما مرقتها ؟ فمدّعيات تركيا بأسرها اختلاق محض وافك صراح وبهتان ظاهر . وكان الحري بها ان تقول جهرةً اني متنمرة للانتقام منكم يا نصارى متحفزة لحسو دمائكم على الرغم من مراعفكم

فالمسيحيون اولاً لدى سماعهم المنادي ينادي بوجوب دفع الاسلحة الى المحكمة جمعوا ما كان عندهم من البنادق مما لا يحاو بطائل وسلموها الى اولياء الامر بخاطر طيب . غير ان الحكومة بعد ذلك كله أصرّت على طلب الاسلحة كانها تريد من النصارى ان يخلقوا اوَ يخترعوا لها اسلحة . ولكن نيتها كانت شريرة لئيمة اذ لم تك ترنو الى السلاح بل الى الدماء . وكان علّام الغيوب وحده يعلم سرها ونجواها . فما اكتفت الحكومة بأخذ السلاح بـل اشتدّت

غفلة على الكنائس وحفرت القبور والارماس ودكّت المذابح وقوّضتها وفتشت تفتيشاً بليغاً في غرف الاساقفة والكهنة والوجهاء ولم تعثر على شيء مما توهمت

ثانياً : ان اغلب مسيحيي ما بين النهرين إلم نقل كلهم يجهلون لغة الاجانب وبالكاد يعرفون القراءة البسيطة . فأنى يتيسر لهم والحالة هذه ان يخابروا الدول . بل كيف يمكنهم ان يراسلوهم والطرق مقطوعة والرسائل تُبعث مفتوحة

ثالثاً : اما الجمعيات السرية او الاخويات التقوية [1] ومن جملتها الجمعية الفداوية الارمنية فلم يك لها في بلاد ما بين النهرين سوى الاسم فقط وان وُجد فيها بعض الاشخاص فان المسلمين كانوا ما

(١) من الغرائب ان اولي الامر في بلاد تركيا جماء استقصوا في البحث من جمعيات النصارى واخوياتهم وهم يعرفون معرفة تامة ان تلك الجمعيات او الاخويات ما انتظمت الا لعمل الخير وايتاء ذي القربى كاغاثة الفقير ومساعدة اليتيم ومعالجة المريض وحضانة اللقيط او الثبات في صالح الاعمال والغيرة على نشر الايمان المقدس واذاعة بعض العبادات التقوية . من ذلك جمعية مار منصور الدائمة الثمرة واخوية الارمن بدير بزمار بلبنان . واخويات دم الفادي والقربان الاقدس ودرب الصليب والموتة الصالحة والحبل الطاهر وسيدة بومباي والوردية وهلم جرا . وقد اطلع على اسرار هذه الاخويات ومقاصدها جميع من عاشر المسيحيين ولاسيما الشبان المسلمون الذين تلقوا العلوم في مدارسهم . فكيف افضى التعصب واللوم بارباب الحكومة التركية واقطابها الى القاء القبض على رؤساء تلك الجمعيات وعلى المنتمين اليها . بل كيف سوّغت لهم نفوسهم ان يهددوهم ويسجنوهم ويعذبوهم ويذبحوهم لعمري ليس الفتى من شغب او تعصب او ضرب بالسيف والسكين . كلا . بل الفتى من جعل الحق والصواب ازاءه والباطل والتخريص وراءه واحسن الى البائس والمسكين . واقرّ بالمعروف والاحسان . فتأمل

بينهم يطلعون على ما يحدث ويقال مما لا يمس حقوق الحكومة بتة بناء عليه نقول ان المسلمين لم يجدوا لنا ذنباً ليُلحقوا بنا العار ويُنزلوا بنا النكال ويفتكوا بأرواحنا سوى كوننا مسيحيين فقط . وان قال قائل ان المسيحيين كانوا يكيدون المكايد للحكومة بدسائسهم قلنا ان يد الحكومة كانت طويلة ايضاً يسهل عليها محاكمة المجرمين ان وُجدوا ومعاقبتهم ان أُثبت عليهم ذنب . والا فلا حق لها ان تعاقب البريّ كالمجرم والظالم كالمظلوم فهي هي المسؤولة عما ارادت بقتلنا وفيما أبطلت وأباحت دمنا

واذكر ايها القارئ انه كما اشترك في مذابح اطنه سنة ١٩٠٩ جواد بك واليها ورمزي باشا القومندان وناصيف متصرف جبل بركات بدسائس عبد الحميد كما تشير الى ذلك الاوراق الرسمية والقضائية هكذا قل في مذابح ولاية دياربكر التي اشترك فيها رشيد الوالي وبدري متصرّف ماردين وتوفيق بك الياور وممدوح قومسير دياربكر بدسائس أنور وطلعت ومن نحا نحوهما حتى قلبوا الولاية ظهراً لبطن وملأوها سبياً ونهباً وأوسعوها حرقاً وهدماً وأوعبوها ذبحاً وقتلاً . قال ميخائيل رستم

يا هل ترى والعصر عصر تمدنٍ كيف استحلّ الترك قتل الارمنِ
ألغيرة في الدين عند المؤمن ام كان اكراماً لذاك المقتنِ

بناء عليه نقول ان تركيا ما انزلت بنا الظالم وما ارتكبت الجرائم الا لاننا نصارى مسيحيون لا ذنب لنا قطعاً واصلاً . فلاجل الدين المسيحي المحبوب عُذبنا ولاجله ذُبحنا ولاجله استيق رجالنا ونساؤنا ولاجله مُتنا اشنع الميتات فالله العادل بيننا وبينها . ترى اي عاقل لا

يتأفف من هذه المعاملات ويستنكف هـذه الجرائم . اصبر يا صاح اصبر حتى يحكم الله تعالى وهو خير الحاكمين. فانه سبحانه لو يعجل للناس الشرّ استعجالهم بالخير لقضي اليهم أجلهم

الفصل الخامس

ماردين والحرب المشؤوم

تلقت حكومة ماردين اوامر الحرب متهللة لها مرحبة بهـا . عاقدة الامال بنيل المنى ممتطيةً صهوة الحبور والهناء. وهبّت ناشطة من فورها لحشد الجنود وتعبئة الجيوش غير مكترثة للسنّ والقد والكفاءة . فكنت ترى الناس في اضطراب ووجل شديد. وحيرة عظيمة . لا يدرون كيف يتماصون من جفاء الحكومة وقسوتها . على ان الجنود منذ اعلان الحرب طفقوا يحملون على الدور ويخوضون الكنائس يشوّشون الضمائر ويرعبون الافئدة ويُلقون القبض على الشبان ويسوقونهم الى دار الحكومة فلا يبيتون ليلتهم حتى يضطرّوهم الى الرحيل الى نواحي دياربكر وبتليس ووان وخربوط وارضروم دون تريث وجعبتهم خاليـة من الزاد وأبدانهم معرّاة كأنّ الماردينيين اخذوا على عهدتهم المدافعة عن تلك البلاد القاصية وانّ عليهم المعوّل في مسئلة خلاصها من هجمات الاعداء . وتأتى من ذلك ان قوماً من اولئك الجنود الحديثين خاطروا بحياتهم وانهزموا تحت الليل وقفلوا راجعين الى بيوتهم ولزموها لا يجسرون ان يخطوا خطوة خارجاً عنها لئلا يُقبض عليهم تكرارًا ويساقوا الى حيث انهزموا ودامت الحال

كذلك حتى بان الأنس وارتحل السرور عن المسيحيين وتفتحت عليهم أبواب العدوان فاحتجب قوم عن العيان وانهزم غيرهم الى جبل سنجار حرصاً على أرواحهم وضنًّا براحتهم

اما الحكومة فانصاعت تطلب المساعدات المالية من طائفة فطائفة لا ترعى في ذلك للعدل والانصاف حرمةً فضربت الضرائب عـلى عامّة الناس وألجأتهم ان يُمدّوا الذخائر للجنود ويهيئوا الاعـدال والجوالق للنقل ويدفعوا المبالغ لمشترى البغـال والحمير والجحاش . وفدحوا المسيحيين خاصةً بالمؤن الباهظة والكلف المجحفة وزادوا عليها توابع ونوافل مما يطول شرحه، فكانوا يؤدّونها دَيناً او هيناً دون تبرّم . فكانت تُحشد تلك المؤن وتخزن او ترسل الى البلاد فتهطل عليها الامطار وتلحقها الرطوبة فتفسد او يتسلط عليها الضباط الامناء فيتصرفون بها كما يهوون في حين لم يكن يعاق بيد العسكر خبز يومهم فكانوا يموتون جوعاً او ينهزمون ناجين بارواحهم . ولجّت الحكومة في الطلب وتمادت في الاعتساف اشباعاً لمطامعها حتى ضيّعت حقوق العباد وكأني بكل من اعضائها يقول اذ ذاك اني اشكر لحكومتي شكرًا جزيلًا على وصولي الى هذا اليوم الميمون السعيد فقـد كنتُ مشرئبًّا اليه بكل قلبي ولبّي لابرّد غليلي وانفض فقري وأصبح متقلباً في ارغد المعيشة متمتعاً ببواعث المسرة والهناء. على ان ما يصيبني شهريًا لقاء خدمتي لا يكاد يكفي لغذائي وحدي فكيف الامر وعندي من الاولاد والنساء والجواري كذا وكذا...

ولا يتيسر لنا ان نستقصي كل ما أنزل بالمسيحيين في بدء الامر من الجرائم العظمى والجنايات الكبرى استنزافاً للاموال ومـا لحقهم

فيما بعد من الاضرار والخسائر والمساوئ . فان اولي الحل والعقد بل جميع المسلمين دون استثناء كمنوا الحقد والبغض للمسيحيين منذ عام ١٨٩٥ وكانوا يسترون عنهم مضمرات أحقادهم وضغائنهم ويتحينون الفرص لينتقموا منهم . ولما شعروا بان للحكومة نية في ازال النكال بالنصارى سُرّت نفوسهم الخبيثة وطووا على ذلك كشحهم يترقبون الفرصة لنيل مآربهم حتى بدء صيف ١٩١٥ فاشتد حينئذٍ انفجار شرهم وأحدّوا شفار خبثهم ونزلوا باجمعهم الى ميدان المظالم . فغربت شموس ملائكة الرحمة وذرّت قرون شياطين النقمة وادلعت السنتها النجسة ودفعتهم الى ارتكاب كل ما حرّمه الله حتى صحّ فيهم قول القائل

قومٌ اذا الشرّ أبدى ناجذَيه لهم طاروا اليه زرافاتٍ ووحداناً

فخرجوا عن جادة الهداية ولزموا الشر والرداءة وبالغوا في اضرار الرعايا وتبضضوا خاصة حقوق النصارى واغتصبوا املاكهم ودكاكينهم ومخازنهم وجعلوها لسكنى الجنود وادّخار المؤن وحشد الامتعة العسكرية . فعظم الخطب وليس من مُعين وتتابع الشقاء وليس من مغيث غير الواحد القهّار المالك رقاب العباد وهو القائل « لا تنتقموا لانفسكم . لانه قد كتب لي الانتقام انا اجازي يقول الربّ . فان جاعَ عدوّك فأطعمه وان عطش فاسقه فانك بفعلك هذا تركم على هامته جمر نار [روم ١٢] فيحترق في دنياه قبل اخراه

الهي ان هولاء قد جاروا على العباد وظلموهم وهضموا حقوقهم وغبنوهم . وانت الحاكم العدل المنصف المحاسب على كل عمل صالحاً او طالحاً الأغلظ عليهم وعاقبهم وهضهم فقد هضونا وبخسوا اشياءنا

ونقضوا الأيمان بعد توكيدها . والذين ينقضون عهدك . . ويفسدون في الارض اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار [سورة الرعد]

الفصل السادس

اضكاف القسان الكاثليك ومطرانهم . اعلان الحرب .
حشد الجنود وبثهم من ٣ الى ١٠ آب

انا منذ اشهار هذه الحرب اخذنا نكتب يوميًّا ما يجري في ماردين وضواحيها من الوقائع وما يرد اليها من الاوامر على قدر ما تسمح لنا الظروف . وكنا نظن أن حرباً طاحنة كهذه لا يمكن ان تستغرق مدتها الا بضع اشهر . فخاب ظننا وأخفق أملنا لاننا رأينا وسمعنا ما لم يكن يدور في خيالتنا ابداً

ففي سابع عشر تموز يمّم ماردين الاب اندراوس يوستنياني اليسوعي مع الراهب عبد المسيح اشبع الارديني . فطلب اليه في ٢٩ تموز السيد اغناطيوس مالويان والسيد جبرائيل تبوني ان يلقي عليهما وعلى قسّانهما مواعظ الرياضة في كنيسة الاباء الكبوشيين . فاجاب الاب يوستنياني الى طلبهما بترحاب وحبور واجتمع في الكنيسة المذكورة كهنة الكاثليك جميعاً وجعل الاب اليسوعي ينثر عليهم لآلى كلامه وجواهر نصائحه[1]

وبلغنا مساء الاثنين ثالث آب ان النمسا أعلنت الحرب بالاشتراك

(١) كان ذلك كان تأهباً لخوض غمرات العذاب واستعدادا للرحيل من دار الشقاء والفناء الى دار الغبطة والبقاء